

أصداء النور

دنيا من النور أجلوها وأرشفها
رشف الضياء دموع الورد والزهر
شاعر مهجري

تأليف
أديب إبراهيم الدباغ

شركة سوزلر للنشر
SÖZLER PUBLICATIONS


أصداء النور

- الترقيم الدولي : 977-5323-64-9
- رقـم الإيداع : ٢٠٠٤/٥١٢٢
- الطبعة الأولى : (٢٠٠٤)

- النـاشـر : شركة سوزلر للنشر
- العنـوان : ٣٠ شارع جعفر الصادق – الحي السابع – مدينة نصر – القاهرة جمهورية مصر العربية

تليفـون : ٢٦٠٢٩٣٨ (٢٠٢) +

تليفاكس : ٢٦٣٠٥٣١ (٢٠٢) +

30 Gafar EL-Sadek St., 7th Nasr City

Cairo – Egypt.

Tel. : + 202 2602938

Telefax : + 202 2630531

http : // www.sozler.com.tr





دنيا من النور أجلوها وارشفها
رشف الضياء دموع الورد والزهر

شاعر مهجري

تأليف
أديب إبراهيم الدباغ


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أعرف صديقا عزيزا كان قد عقد مع "النورسي" من خلال رسائله — رســـائل الـــنور- صداقة متينة، واتخذه صاحبا ومشيرا، فإذا حزبه أمر من أمـــور دنياه أو آخرته، هرع إلى "الرسائل" يقلب نظره في صفحاتها، وهو يهمـــس في نفسه: ما تقول يا صديقي في هذا الإشكال، وكيف تراه..؟ أمن حل لـــه عندك..؟ ويظل يجري بين الأسطر والصفحات حتى يلتقي الجواب، ويقع على الحل فيأنس ويطمئن.

ومـــنذ نـــيف وربع قرن وأنا أقرأ "النورسي" وأكتب عما أجده من أصداء فكره في وجداني ومشاعري، فما توقف نبض الأصداء، ولا غاض نـــبع العطاء، ففكر الرجل دفق نوراني فياض، وبحر روحه خضم متلاطم ثـــوار، فمهما غرفت منه يزيد ولا ينقص، فلا جيشانه يهدأ، ولا فورانه يـــبرد، فأنـــت معه في أمداء من الإيمان والقرآن أبعد مما كنت تحسب، وأعمق مما كنت تظن.

وغـــيري جـــم غفير من أفاضل الكتاب والمفكرين جالت أقلامهم في فكره، وأسهمت في الكشف عن كوامن عقله وروحه، وما زالوا يكتبون، وأغلـــب الظن أن أقلاما كثيرة سيصيبها اللهاث، وستنكفئ متعبة، وربما جـــف مدادهـــا قبل أن تقول كل ما تريد عن فكر الرجل، وسيبقى هذا الـــرجل لغـــزا محيرا من أي محراب من محاريب الدين أو الأدب أو الفكر

دخلــت علــيه وجــدت عنده النور الذي يغشى كل ديجور وينير كل مكشوف ومستور.

وهذه الأسطر التي بين يدي القارئ الكريم وإن أسميتها "أصداء النور" غــير أنهــا ليســت خالص "الصدى" في صفائه ونقائه، بل هي "رجع الصدى"، بل هي ظله، بل هي بعض ذبالات مرتعشات من مشكاته.

وهــذه الذبــالات كانت قد قيدت تحت عناوين مختلفة وفي أوقات متــباعدة، ومناسبات متغايرة، إلا أن الذي يتحسسها لا يخطئه فيها نبض النورســي، والــذي يجــول في أرجائها لا يخطئه عبق أنفاسه رحمه الله، فالصدى منه، ورجع الصدى إليه يعود.

تقبل اللهم هذا العمل على عيبه ولا ترده علينا، واشملنا وإياه برحمتك يا أرحم الراحمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أديب الدباغ

هوامش

على فكر بديع الزمان سعيد النورسي

وسيرته الذاتية

قـــدم هذا البحث إلى المؤتمر العالمي الثاني لـــبديع الـــزمان سعيد النورسي "بديع الزمان سعيد النورسي وإعادة بناء العالم الإسلامي في القرن العشرين" في ٢٧ - ٢٩ أيلول ١٩٩٢ استانبول

لأن مـــا بينـــنا وبين "النورسي" بعدا مكانيا وزمانيا فلربما نراه - نحن العـــرب - أفضل مما يراه المقربون منه والملتفون حوله، كأي بناء عال لا يقدر علوه إلا الناظرون إليه عن بعد، وأما المحيطون به، والمقيمون حوله، فقد يفوقم تقدير علوه، واستبانة ارتفاعه.

فالعرب اليوم بإزاء واحد من المفكرين الموهوبين الذين لا يحسن بأحد منهم من المعنيين بشؤون الدين والإيمان أن يتجاهله.

وأنا على يقين بأن رسائله المترجمة إلى العربية ستصبح مع الزمن منجم أفكار إيمانية يجود على الطالبين بكل جديد ونفيس منها.

ومنذ اثنتي عشرة سنة وأنا أقرأ "النورسي" وأتعلم منه، واسترشد بآرائه وأفكـــاره فيما يعن لي من قضايا الدين والإيمان، وقد خرجت من قراءاتي بالآتي:

إننا بازاء رجل يفور روحه بأسرار الإيمان، ويتفطر فؤاده بفجر اليقين، ويلتهـــب رأســـه بأفكار العقيدة، وهو قادر على إيقاظ هوامد أفكارنا، وبعث الحياة في موات نفوسنا وشلل أرواحنا، وقد أوتي فضيلة النطق بكل جلـــيل وجميل من الأفكار. وإن شهابا ثاقبا من سماء روحه كفيل بإشعال هشـــيم نفوسنا، وجعلها تتلهب شوقا إلى الله، وتحترق محبة فيه. و لم يتأت له ذلك إلا بعد أن خاض تجارب روحية كثيرة، أخصبت كيانه، وأمرعت فـــؤاده، لعل من أهمها تلك التجربة الذاتية التي شكلت منعطفا جديدا في مســـيرة تاريخـــه الفكري والروحي، فهو حين أنكر نفسه، ورأى منها ما يريب، استنفر شجاعته، واستجمع كل قوى وجوده لتسعفه في الانسلاخ عنها، والتنكر لها، و لم يتردد لحظة في نحرها بسكين همته ومواراتها التراب والتكبير عليها أربعا.

لقـــد فعل "النورسي" هذا حين أشكلت عليه نفسه، وغم عليه هدفه، و لم يعـــد يعرف من هو..؟ وماذا يريد..؟ وما هي حقيقة رسالته في هذه الحياة..؟ وما السبيل إليها..؟

وعندما وضح الهدف، واستبان السبيل، وقذف في روعه أن رسالته إنما هـــي إنقـــاذ الإيمـــان في هذا العصر المقفر الجديب، ألقى بسعيد القديم

وباستشرافه إلى الدنيا في تابوت الموت، وقذف به إلى يم الماضي السحيق، وما لبث "سعيد الجديد" أن نهض بدلا عنه، نافضا عنه تراب الدنيا، ليبدأ رســالة إنقــاذ الإيمان، بنفس قوية لا تهزم، وعزم ماض لا يكل، وفؤاد صارم لا يضل.

لقــد رأى الرجل بقلبه البصير الصادق، وبصيرته المتوقدة الحادة، أن ســبب ما يعانيه المسلمون من عوابس الخطوب، وكالحات المحن، يرجع بالأســاس إلى غياب الوعي الإيماني العميق، وانطفاء العقل المسلم القادر عــلى صنع الأفكار المستنيرة، وتسطح الفهوم والمدارك، وخدر المسلمين بأفــيون الدنــيا، وفقدانهم للحس بمخاطر ما يحيط بحياتهم.. لذا لم ير من الــرجولة والمروءة بمكان أن يستبق الأحداث، ويزج بطلابه الذين لم يبلغ الوعــي الديــني عندهم مرحلة النضج والكمال، لينافسوا الدنيويين على دنــياهم في معارك السياسة، قبل أن يموت فيهم - مثله - أي استشراف إليها، ومحبة لها، لأنه يرى أن الدنيا بأسرها لا تساوي قطرة دم واحدة من مسلم تهدر في سبيلها.. فما يريده سعيد الجديد مرحليا هو أن ينشئ جيلا واعــيا مشبعا بحقائق الإيمان، مستقلا بالحمل الفادح، ثابت الوطأة، قائم الصــلب، أيــد الــركن، يملك الدنيا بيده ولا يدعها تلج إلى قلبه، يرى الاستشهاد في سبيل حقيقة من حقائق الإيمان شرفا لا يعدله شرف.. إلى هــذا الهدف كان يرمي في كل ما كتبه في "رسائل النور". غير أنه لم ير مندوحة في مجاهدة الأعداء الآتين من وراء الحدود، لأن الأمر هنا لا يحتاج إلى كــبير وعي، ولا إلى مزيد علم وفقه، فمعلوم من الدين بالضرورة أنه إذا ديســت أرض المسلمين من قبل الكفار فالجهاد فرض عين على كل

مسلم، فسارع إلى تشكيل فرق الأنصار من طلابه ومن المتطوعين، وكان ظهير الجيش النظامي في حربه مع الروس، وقد أبلى البلاء الحسن كما شهد له بذلك الأعداء قبل الأصدقاء، حتى إنه جرح وأسر وبقي في الأسر حتى قيام الثورة الشيوعية سنة ١٩١٧م.

وفي خطبته الشامية ذائعة الصيت لخص "النورسي" أمراض المسلمين، وذكر اليأس والقنوط والشعور بالإحباط كواحد من هذه الأمراض التي داءت بها عقولهم وأرواحهم، فشلت جوارحهم عن الحركة، وقرحت آمالهم وأحلامهم، وجمدت نبض الحياة في عروقهم.

وقد دعا "النورسي" المسلمين لينهضوا ويغالبوا هذا العصر العصي الذي يبدو وكأنه مدسوس على الدنيا في حين غرة من أهلها، ليهدم بمعاوله كل منارات الهدى، ويطمس على كل ما يمكن للجنس البشري ان يسترشد به من معالم الحق والعدل والخير.

فالتفاؤل والأمل هو ينبوع قوة المسلمين، وسر استعصائهم على ضربات الزمن الوجيعة، وهو النور المسكوب من وجدان الغيب ليشرق بسنائه فوق ليالي اليأس والحزن والألم.

ورسائله كلها تنبض بروح الأمل في مستقبل المسلمين الآتي، إنه يخاطب جيل عصره الذي لا يرى المستقبل، لأن عيونه في قفاه، ويطلب منهم إن لم يستجيبوا له فلا أقل من أن يتواروا ويتركوا الطريق فسيحة لأولئك القادمين الآتين ببيارق الإسلام الخفاقة، إنهم جيل المعجزة الإسلامية التي لا تنقضي عجائبها، وها أنذا أنقل إليكم صوت "النورسي" وهو يخاطب موتى هذا الجيل وينهرهم قائلا: "أيها الموتى.. أيتها القبور

التي تمشي على رجلين.. أيتها الأجداث المتحركة فوق أديم الأرض.. أنتم أيها المنخورون المهزوزون المنهزمون.. ابتعدوا.. تنحوا عن طريق الأجيال القادمة.. افسحوا الطريق للأحياء الممتلئين حياة بروح الإسلام.. وامضوا أنـــتم إلى قـــبوركم التي تنتظركم.. تواروا واتركوا المكان لجيل البطولة والأبطال القادمين..".

وفي "بارلا" ذلك المنفى القصي، وجد "النورسي" نفسه رهين غربتين، غربته عن عصره وزمانه، وغربته عن موطنه وأهله وصحابه، حيث لا خل ولا صـــاحب، ولا سلوة ولا عزاء، ولا مأوى له على ظهر الأرض يؤويه ويضـــمه إلى صدره، فقد صدت عنه الدنيا، وجفاه زمانها، فجنح بطبعه الفطري إلى الآخرة، وتوجه إليها، وامتلأ خياله بصورة العالم الأبدي الذي يـــرجو أن يكون المكان الذي يؤويه يوما ما، ويضم عليه جناحي حنانه ورحمـــته. يقـــول في وصـــف غربـــته عن عصره، أنقلها عنه بشيء من التصرف:

"ماذا أفعل..؟ إن قدري دفعني إلى هذه الدنيا في زمان غير زماني.. إنه شتاء الإسلام الكابي الحزين.. ولا حيلة لي إلا أن أبذر بذور الربيع القادم الـــذي لا يريد أن يبصره هذا العصر.. وحين تنبت هذه البذور وتتسنبل ويأتي ربيعها أكون أنا قد فارقت الدنيا، لكني سوف، أتنسم نسمات ربيع الإســـلام وأنـــا راقد في قبري.. فاستشراف مستقبل الإسلام الزاهر هو عزائي وسلوتي في غربتي..".

لقد ذاق الرجل ألوانا من الأحزان، وألبس أثوابا من الشجى والآلام، إلا أنـــه كان ستارا لشجوه، كتوما لمصيبته، متلفعا بعظمته، مستغرقا في

ســكينته، منطويا على آلامه، مستغنيا بنفسه، مستقويا بربه، مستعليا على الخوف، قاهرا الجبن والمسكنة، لأنه يرى أن ضعف الفريسة ومسكنتها لا تـثير، إشفاق المفترس ورحمته، بل تزيد في شراسته، وتقوي شهيته للفتك والقـتل والافـتراس، لـذا لم يسجل عليه طوال حياته أنه ضعف وهان واستكان أمام جبروت أصحاب الحكم والسلطان.

ولكن كيف استطاع أن يجعل من "بارلا" القصية البعيدة مدرسة تشع منها أنوار "رسائل النور"..؟!

لكـي نفهـم هذا لابد أن أحدثكم عن شخصية "النورسي" القوية المشعة.. فالشخصية القوية – شأنها شأن طاقات الطبيعة وقواها – مجموعة قوى وطاقات خفية غامضة، تكنها النفس الإنسانية، نحس أثرها وتأثيرها فيـنا وفي الآخرين، دون أن نعرف شيئا عن ماهيتها وكنهها. وقصارى القـول فـيها: إنمـا هبة إلهية، ومنحة ربانية، يمنحها الله سبحانه وتعالى للصـفوة من الناس – ومنهم النورسي – ممن رسم لهم القدر أن يحتلوا مراكـز الإشـعاع في المكان الذي يوجدون فيه، وهي تمثل الاستثناء من المكرور والعادي من الشخصيات.

فالشخصـيات القويـة مـن ذوي البناء المحكم المتين الذين يصعب اختـراقهم، يملكـون قـوى خارقة – تنبعث من ذواتهم، وتقتحم أقفال القلوب والعقول، وهم بكتلهم الثقيلة في موازين الرجولة يشكلون مراكز ثقـل يشدون إليهم من يلتقونهم من الناس، فلا غرو أن يصبحوا طاقات مشـعة في المجـتمع، يلـتف حولهم الناس، ويخطبون ودهم، وينصاعون لأمرهم، ولسان حالهم يقول:

إذا كان قد فاتنا أن نرقى رقيهم، فلا أقل من أن نقبس من عظمتهم، وندين لهم بالمحبة والطاعة والولاء.

وهكــذا انجــذب إلى الرجل من يخدمه ويقرأ رسائله، ويتتلمذ عليه، ويســتكتب هذه الرسائل ويسيح في طول البلاد وعرضها، فيسقي نورها ظماء الإيمان وجياع العقيدة والإسلام.

ولكــن ما هو هدف "رسائل النور"؟ وما المحور الذي تتمحور حوله، وتتموضــع إزاءه..؟ انه باختصار شديد "الإنسان".. هذا الإنسان الذي تريد له أن يدرك أن دنياه لا تقل غرابة عن آخرته، فكل شئ فيها غريب وعجيب ومعجز، إلا أن مداومة النظر للدنيا، والائتلاف الدائم بينه وبين أشــيائها، يجعله يفقد شداهة النظرة البكر، وقوة حدتها ونفاذها، وذكاء لماحها، الأمر الذي يدفعه للاستغراق في المألوف من دون إعمال العقل فيه، ظنا منه أن كل مألوف معلوم، وشتان بين أن نألف أو أن نعلم كما ينبه "النورسي".

وكمــا أن "الدنــيا" موجــودة يصدمنا وجودها، ونتحسسها بأحاسيسنا وعقولــنا، فكذلــك "الآخــرة" موجودة، وهي ليست بأقل حقا ووجودا من الدنــيا، ولكن رؤيانا لها، وشعورنا بها - هنا في الدنيا - يكون بالروح الطاهر، والقلب المتبتل الخاشع، وهذا ما تسعى رسائل النور إلى أن تمنحنا إياه.

وإذ كــان "الإنســان" هــو لب الدنيا الذي تتوجه إليه رسائل النور بمعارفهــا، فإن الدنيا قشرته، أو بالأحرى إن الدنيا لا شئ، بينما الإنسان كل شئ، ومآله الأخروي هو أعظم الاشياء، وأكثرها أهمية وخطورة.

فمـــا يعتـــلج في نفوسنا من توق إلى الخلود والبقاء، ونفور من الموت والعـــدم، دليل على وجود البقاء والخلود خارج عالمنا اكبر من كل دليل وأعظمه، كما يقول "النورسي".

لأن "الإنســـان" - كما هو معلوم - لا يشتاق إلى عدم لا وجود له، ولا يرتـــبط معـــه بسبب من الأسباب؛ إن هذا الشوق هو عذاب الروح المســـتطاب الـــذي يجعل الإنسان ينظر إلى بشريته بشيء من الحزن لأنه سجين هذه البشرية التي كان مقدرا لها أن توجد على هذه الأرض لتعاني الاغتراب، وتكابد عذابه، وربما إلى هذا إشارة في قوله ﷺ، وقد سئل عن ســـنته: "والشوق مركبي.. والحزن رفيقي.. وقرة عيني في الصلاة.." لأنها - أي الصلاة - رسول أشواقه ﷺ إلى الله تعالى رب ذلك العالم الأخروي البعـــيد، القريـــب، الذي نحسه في تجليه على أرواحنا بأنواره وأندائه في لحظات صفاء الروح، وفي أوقات استضاءة القلب بنور الله. كما أن لهذا العـــالم الغيبي امتدادات نسبية في عالم الشهادة - كما يقول النورسي - تظهـــر أوضح ما تظهر في الإنسان، خلاصة هذا العالم، وأرقى مخلوقاته، فكـــيانه - باطـــنه وظاهره - مرآة كبرى تعكس بنسبيتها شؤون الغيب المطلقة.

فوجود الإنسان النسبي يرمز إلى وجود مطلق،

وعلمه النسبي يرمز إلى علم مطلق،

وقدرته النسبية ترمز إلى قدرة مطلقة،

وإرادته النسبية ترمز إلى إرادة مطلقة،

وهكـــذا، فكل ما هو نسبي من الصفات عند الإنسان، يقابله ما هو مطلق فيما وراء هذا العالم.

وحيـــث إن الموجـــودات - حتى الجامد منها - مفطورة على حب الكمال، والارتقاء من الأدنى إلى الأعلى، ومن المحدود إلى اللامحدود، ومن النسبي إلى المطلق، ولما كان الإنسان أرقى هذه الموجودات من ذوي العقل والشـــعور، صار همه الانعتاق من سجن النسبية اكبر همومه، وشوقه إلى المطلق اعظم أشواقه، كما يشير "النورسي" فكيف لا تعاني أشواق المسلم الغـــربة في هذا العالم الذي تحكمه النسبية، ويهيمن عليه السلب والموت والفناء والعدم..؟.

إذن فكيف الخلاص من براثن عالم السلب هذا..؟ وكيف النجاة من حبوســه الضيقة المحدودة..؟ ولماذا نموت ظامئين ونحن على مقربة من نهر الأبدية العذب..؟ إن الخلاص والنجاة - كما يرى النورسي - إنما يكون بالـــتعلق بشـــدة بأمراس الغيب، والاستمساك بقوة بحباله الممدودة إلينا، فـــباب الغيب العظيم المشرع لكل مشتاق وراغب إنما هو القرآن الكريم الذي يملك المداخل لجميع العقول البشرية على اختلاف نوازعها.

فـــالوقوف الدائـــم على مشارف عوالم القرآن سيجعلنا نبصر حبال الإنقاذ النورانية الممدودة إلينا لنتعلق بها بقوة، ونعض عليها بالنواجذ.. انه يخـــترق بنا أعماق الزمان الأبدي الذي لا نهاية له، ويطلعنا على ما يحتويه من صور الجلال والجمال ليزداد حبنا له، وشوقنا إليه.. فمن يحب الخلود ويســـلك إلـــيه سبيل القرآن يخلد.. ومن يحب البقاء ويتعلق قلبه بالباقي الأبدي الأزلي يذق حتما وقطعا طعم البقاء، كما يقول "النورسي".

كمـــا أن للغيـــب صـــورا جمة، وتشكلات لا حصر لها في العوالم والأكـــوان، وفي الأحـــياء والجمـــادات.. فالقرآن الكريم يشير إلى هذه الحقيقة، ويعلمنا أنه التجلي الأعظم لصفة الكلام الإلهي المتزل على قلب سيدنا محمد ﷺ، وأن الصفات الإلهية الأخرى: القدرة، الحكمة، الإرادة، العـــلم، الحياة، لها تنـــزلاتها وتجلياتها على قلب الكون. فالعوالم والأكوان خاضـــعة ومستســـلمة لهذه الشريعة الكونية التي تعمل بصمت وخفاء في الأشـــياء. فـــتقدم الإنسان العلمي يتوقف على فهم دساتيرها ونواميسها، واكتشاف أسرارها كما يقول "النورسي".

لـــذا غدا، اهتمام المسلم بالكون بديهيا، ورغبته في فهمه والتوغل في أسراره من أوجب واجباته الإيمانية، لأنه بمقدار ما يجهل منه يكون جهله بـــربه، وبمقـــدار ما يجهل منه يكون جهله بعقله، وعلى قدر ما يفوته من العلم به يكون مقدار ضعفه وتأخره العلمي.

فالشـــريعة الكونـــية ينبغي لها أن تترل عقل المسلم، وتسري في حسه جنبا إلى جنب مع شريعة الكلام الإلهي، أي "القرآن الكريم" ومن تداخل الشـــريعتين ونفاذهما في بعضهما وتفاعلهما داخل عقل المسلم ووجدانه، تولد حضارة الإسلام من جديد كما يرى "النورسي".

غير أنه ومنذ دخول العالم الإسلامي شتاءه الحضاري القاسي، وعقل المســـلم لم يعـــد عقلا حركيا فاعلا، إنه في حالة استرخاء دائم، وجمود مســـتمر، بل هو مريض معتل لم يعد يستجيب للتحدي والاستفزاز، ولم يعد ذلك العقل المشدود دائما، اليقظ الصاحي أبدا، المتهيئ في كل وقت لالـــتقاط إيماءات الكون، واستلام إشارات الطبيعة، ولم يعد عقلا مغامرا

يســـتهويه المجهول، ويفتنه المستور، حتى لكأنه يخاف الحقائق ويستهولها، فيتحاشـــاها ويهـــرب مـــنها، وبذا لم تعد حياتنا الإيمانية وحدها مهددة باليبس والنضوب، بل غدا إدراكنا نفسه مهددا بالشلل والجمود.

و "رســـائل النور" تسعى لكي تعيد إلى عقل المسلم صحوه الغائب، وتديـــر في مغالـــيقه مفاتـــيح الأفكار، وترجع لخلاياه الكسول الحيوية والنشاط، وتشحذ قدرته على دقة الملاحظة، وذكاء اللمحة، وسعة النظرة والخيال.

وهـــذه هي أشراط ولادة الفكر الإيماني الحي الذي بشر به "النورسي" وتحدث لطلابه عن إرهاصاته وتباشيره.

غـــير أن المفكر الإسلامي الموعود والمرصود لمواصلة المسيرة التي بدأها "النورســـي" لا يمكن أن ينجم من فراغ، أو يسقط من هواء، بل لابد له من أرض صالحة يستنبت فيها.. ولا أحسب أرضا صالحة يمكن أن تنشق عـــن نبـــتة هـــذا المفكر الواعد مثل رسائل النور المفعمة بالمنقول الإلهي، والمؤيد والمعزز بالمعقول الكوني، فطينة أرضها مزيج من الائتلاف الحميم بـــين الشريعتين الكونية والقرآنية، وحين يأتي هذا المفكر - وهو آت لا محـــال - فإن إحدى الحوادث الكبرى في تاريخ الإسلام والمسلمين تكون قد ولدت، الأمر الذي يوجب على المسلمين الاحتفاء بمولده كما كانت قبائل العرب تحتفي بمن ينبغ فيها من شعرائها. و "النورسي" لا يرى شيئا أشـــد سقوطا، وأشنع انحدارا، من أن يتجرد رأي الإنسان في هذه الخليقة مـــن أي معـــنى الهي، لذلك فليس من شأننا نحن المسلمين - أو من شأن مفكريـــنا - أن نعقـــل حقائق الأشياء بالعقل المجرد وحده - كما يريدنا

الغربيون أن نفعل - بل بالعقل المستضيء بالإيمان، وبالبصيرة المستنيرة بالقرآن. فحضارة الإسلام - كما بشر بها النورسي - لا تبنيها اليوم إلا عقول موسوعية كبيرة وعميقة، لا يقوى على اختراق حصونها الفكرية خارق أيا كان، ولا تنشؤها إلا أرواح جبارة شامخة، تستعصي في سموها وجلالها على عاديات الأيام، وفادحات الدهور، ولا يعلو بناؤها، ويرتفع شأنها، إلا بالإنسان المؤمن البصير الواعي الذكي اللماح الذي ينذر حياته كلها من أجل أن يسهم في إقامة صرح هذه الحضارة ولو بلبنة واحدة.

والجمال والجلال هما جوهرا هذه الحضارة التي لها ميزتها وتفردها واختلافها عن سائر حضارات الأرض، فالجمال هو روحها، بينما الجلال هو جسمها.. الجمال هو بستانها، والجلال سياجه.. الجمال هو الحق والعدل والخير، وهو الرحمة والصدق والشرف والكرم والمروءة والبر والمعروف وكل المحامد والمناقب، أما الجلال فهو سيفها البتار الذي يحميها ممن يروم اختراق بستانها، والعبث بزهره وثمره.

وفي رسالته العجيبة "الاسم الأعظم" يبين "النورسي" آثار فاعلية أسماء الله الحسنى في الإنسان والكون والحياة، وآيات تجليها بمعانيها وصفاتها على الموجودات.

ويشير إلى أن اسميه تعالى "الجميل والجليل" يؤثران في الكون، فهو جميل تقطر ألوان الجمال من كل جزء من أجزائه، وصورة من صوره، وهو كذلك جليل مهيب يبعث الإحساس بالرهبة والروع والاستهوال إزاء كبره وسعته وامتداده.. وحضارة الإسلام إنما تبنى على مثال الكون في جماله وجلاله.

ولأن "رسائل النور" هي فلذة من كبد الكون، وقطعة من فؤاده، ترى بعينه وتسمع بسمعه، وتعقل بعقله لذا فلا غرابة إذا ما رأينا الجمال والجلال يسريان جنبا إلى جنب في كلماتها وسطورها، فبينا تكون مغمورا بفيض من جمال المعاني الإيمانية التي يتفجر عنها وجدان النورسي، حتى لتخال أنك بإزاء أديب كبير ذي روح شاعري، إذا به ينقلك فجأة وربما عبر سطر واحد إلى عالم الجلال الإلهي الذي يروعنا ويجعل قلوبنا تبادر إلى السجود خاشعة على أعتابه.. وهكذا مهما قلبت من صفحات هذه الرسائل طالعتك فيها رقة في شدة، ورأفة في قوة، ورحمة في عز، وتواضع في شموخ، ولطف في متانة، وعقل في قلب، وقلب في عقل.. وإنك لتحس بقلب "النورسي" الكبير وهو يترنم شجى ووجدا، وترى دموعه تفيض حزنا ولوعة على الإنسانية المعذبة بعذاب البعد عن الله، إنه ليستقطر دموع النوع البشري على النوع البشري نفسه الذي سيواجه عذاب العدم في آخرة الوجود والبقاء، ما لم يتب ويعد إلى الله تعالى. إنه أخو البشر، وشقيق الإنسان، تبكيه مأساته، أيا كان وفي أي مكان من هذه الأرض.

وهو حين يذكر الإنسان الجحود بمآله المفجع في الآخرة، لا ينسى - في الوقت نفسه - أساس مهمته، ألا وهي تحبيب الله إلى خلقه، قبل تخويفهم منه، اي الجمال ثم الجلال.

فالجمال والجلال هما القاعدة الحضارية التي تنطلق منها "رسائل النور" لبناء المسلم الجديد المؤهل للقبول في صف نبلاء الفكر ممن تودع بين أيديهم أمانة إرساء أسس الحضارة الإسلامية الآتية.

فلطــف الجمال مما يحول بين "الأنا" في دواخلنا وبين الكبر والعجب والطغيان، وهيبة الجلال تنهض "الأنا" من وهاد الضعف والسقوط والذلة والقــنوط.. الجمــال يغرينا بسمو الفكر، وشرف العدل، وحب الحق، وعشق الفضيلة، وأداء الأمانة، والشغف بالواجب. بينما يفجر الجلال فينا ينــبوعا دفاقــا من القوة، ويهبنا البسالة والشجاعة ويمنحنا الحمية والأنفة والاستعلاء على الجبن والخوف.

ومــا زال "الأنا" في الإنسان المعاصر، هو المعضلة الكبرى المستعصية عــلى الحــل، وهو ما فتئ في طغيانه أو انسحاقه يشكل سوسا ينخر في إنســانية الإنســان، وقــد أعــيا علاجه الفلاسفة والحكماء، وحار فيه الاخلاقيون والتربويون. لأن الدواء الذي يقدمونه له هو من صنع "الأنا" المريض نفسه، فيأتي معلولا لا جدوى منه.

أمــا الدواء الذي تقدمه "رسائل النور" فهو مزيج من الجمال والجلال الإلهــيين، وهو موزون بميزان من رفع السماء ووضع الميزان، وخلق "الأنا" في الإنســان، وجعلــه مــناطا للتكليف والسؤال، وهو دواء علته، وبلسم مرضــه، الذي يفي بحاجته، ويحفظ له دوام الاستقامة والاعتدال، وباعتداله تعــتدل الدنــيا، أمــا إذا فرط أو أفرط فعلى الدنيا العفاء، لأن "الأنا" في الإنسان منبع كل خير في العالم إذا اعتدل واستقام، ومنبع كل شر في الدنيا إذا جــنح وانحرف. وإذا كان ما من جميل إلا ويمازج جماله مهابة الجلال، ووقار العظمة والكبرياء، وما من جليل إلا وله من الجمال نصيب، فكذلك فــان كــل ذي حياة – ولا سيما الإنسان – تشع من حياته معاني الأسماء الإلهية الحسنى، وصفاتها الجميلة والجليلة ، كما يرى النورسي.

وبهذا صار "الإنسان" آية كبرى من آيات الله تعالى، لأنه يعكس أضواء هذه الأسماء على ما يحيط به من الموجودات والأناسي، فيصبح كل إنسان مرآة أخيه، يبصر فيها نفسه، كما ورد في الحديث الشريف: "المؤمن مرآة أخـــيه" ووجب أن نحصي أسماء الله الحسنى ونستقصي فعلها وتأثيرها في أنفسنا لنتخلق بأخلاقها، ونحيا بصفاتها ومعانيها، ولعل إلى هذا الإشارة في قوله تعالى: (وفي أنفسكم أفلا تبصرون).

وحــين نبصـــر، ونتعمق بأبصارنا في النفس الإنسانية، نكتشف دواعي القلـــق على الإنسان في تقلب قلبه من النقيض إلى النقيض. فقد يكون على بســـاط الجمال، وفي حضرة أنسه، فإذا به يتحول بين عشية وضحاها عن ذلك ليقع في قبضة الجلال وتحت هيبته وسطوته. فاستغراق النفس بالجمال لا يعـــني خلاصها نهائيا من جرثومتها الأمارة بالسوء. كما أن طغيان هذه النفس، وانغمارها بالموبقات لا يعني خلوها من أصل التقوى والصلاح.

فلـــربما اســـتقام المنحرف، وانحرف المستقيم، والى هذا السر يشير ﷺ بدعائه : "اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي عل دينك".

فالـــنقائض والأضداد من سنن الله في موجوداته – كما يرى النورسي – فالـــنهار يخفـــي في ضميره سواد ليل بهيم، والليل يطوي تحت جناحيه إشـــراقات الضحى وأضواء الظهيرة، وصقيع الشتاء يحتفظ في جوفه ببذرة الربـــيع، وكل ضعيف يطوي في أحشائه نطفة قوته، وكل قوي تستتر فيه نبتة ضعفه.

فالنورســـي يهيـــب بالضـــعفاء ألا يستسلموا لضعفهم، ففي دواخل ضـــعفهم قوة، عليهم أن يكتشفوها وينموها، ويحذر الأقوياء من الغرور

بقوتهم، ففي قوتهم عوامل ضعفهم التي ستوردهم موارد الهلاك في يوم ما، ومـــا نظـــنه شرا بقصر أنظارنا قد ينطوي على خير كثير لا نبصره، وقد تكشف عنه الأيام في قابل الزمان.

وعـــلى ضوء هذه المقدمات يفسر "النورسي" الكثير من وقائع التاريخ الإســـلامي، ويكشف عن أسبابها وأسرارها التي أفادت المسلمين رغم ما يبدو في ظاهر أمرها من كونها وقائع مأساوية كان ينبغي لتاريخ المسلمين أن يتتره عنها، حتى إنه ليرى؛ أن ما نجم من مذاهب الابتداع لا تخلو هي الأخـــرى - رغـــم باطـــلها - من حبة حق أو حبات، أو جزئية منه أو جزئيات، وبهذه الحبة أو الجزئية اعتقدها أصحابها، وها أنذا أنقل إليكم ما يقوله بهذا الصدد مخاطبا طالب الحقيقة والباحث عنها:

"يا طالب الحقيقة:

إن الشريعة تنظر إلى الماضي والى المصيبة غير نظرتها إلى المستقبل والى المعصية.. إذ تنظر إلى الماضي وما وقع فيه من المصائب بنظر القدر الإلهي، فالقول هنا قول الجبرية.

أمـــا المستقبل والمعاصي فتنظر إليهما بنظر التكليف الإلهي، فالقول هنا قول المعتزلة.

وهكذا تتصالح الجبرية والمعتزلة.

ففي هذه المذاهب الباطلة تندرج حبة من حقيقة لها محلها الخاص بها، وينشأ الباطل عن تعميمها..".

والقـــدر - مهما اختلفت المفاهيم حوله - فهو ملح الحياة، فمن دونه

تفقـــد الحـــياة طيـــب مذاقها في أفواه البشر، ومن غير القدر ومفاجآته، تســـتوي أيـــام الحياة وتتشابه أزمانها، ما كان منها، وما هو كائن، وما ســـيكون، ويصـــبح الماضي والحاضر والمستقبل لونا حياتيا واحدا مملا، وصـــورة للعيش واحدة مضجرة، وبذلك يفقد الإنسان اهتمامه بالزمن، وتضـــيع منه لذة معاناة التوجس والترقب لما يمكن أن يأتي به المستقبل من أحداث السلب أو الإيجاب.

وهـــذا "المـــلح الغيبي" هو الذي يمنع بحر الحياة من أن يتوقف ويأسن ويتعفن، فلولا الأقدار لسكنت الحياة سكون الموت، وهمدت همود القبور، فمن صراع أقدار البشر واحتكاك بعضها ببعض، تتجدد شرارات الحياة، وتـــتوهج المجتمعات، وتنهض الدول، وتقوم الحضارات، ويجري التاريخ البشري نحو أهدافه وغاياته المرسومة والمقدرة.

فالـــتاريخ في مفهـــوم "النورسي" يصنعه رجل الساعة، وبطل الموقف الذي يمده القدر بقوة خفية يستطيع بها أن يلوي عنق الأحداث ويسخرها في خدمة هدفه وغايته.

وللنورسي قول في "القوة" قد يبدو غريبا للوهلة الأولى، ولكن عندما نتأمله ونتعمق فيه، ونسبر غوره، نجده من أصدق أقواله، وأكثرها انطباقا عـــلى الحـــق والحقـــيقة، وله عليه شواهد من التاريخ الإسلامي خاصة، والـــتاريخ الإنساني عامة، فهو يرى أن القوى سواء كانت قوى عقلية أو نفســـية أو جســـدية أو علمـــية مادية، حتى لو بدت غير أخلاقية، فإنها تكتســـب بعض خواص الحق، فمهما كانت استعمالاتها، وفي أي سبيل كان تسخيرها فهي تنطوي على خاصية من خواص الحق، وبهذه الخاصية

تنتصر ولو كانت بيد الباطل الغشوم، والى هذا السر يرجع انتصار الباطل القوي على الحق الضعيف.

ورغم علمنا أن الحق أو الحقيقة – أية حقيقة – قادرة على الدفاع عن نفســها، وشــق طريقها إلى الحياة مهما كانت السدود والعوائق، إلا أننا للأسف الشديد قد نشكل بعض هذه العوائق دون قصد منا.

فهــناك فواصل حادة بين الحق الذي نؤمن به، ونرغب بالانتصار له، وبــين قصور الجهد الذي نقدمه في سبيله.. بين القمة الشامخة التي يقف فوقهــا، وبين ضعف الأفكار التي نحاول أن نقدمها للآخرين من خلالها.. بــين أن نعتــبره موقفا سياسيا محليا نخوض به مضامير السياسة، وبين أن نعــتقده موقفا حضاريا عالميا نقارع به أفكار العالم وحضاراته التي تغزونا وتريد تجميد حضارتنا وتحجيم أثرها وتأثيرها فينا.

فالنورسي منذ قيامه مرة أخرى في إهاب "سعيد الجديد" وهو يرى ان قضــية الإسلام الملحة ليست قضية صراع سياسي يمكن أن يغلب فيه، أو أن يكون مغلوبا، إنما هو صراع حضاري رهيب لا يمكن أن يغلب فيه إذا عرفه العا لم على حقيقته واعتقده وآمن به.

لذا فهو يرى أن "أوروبة" التي تمثل قمة حضارة اليوم يمكن أن تخفي في رحمها جنين الإسلام إذا هي فهمته واستوعبته وان هذه الرحم ستنشق عن هذا الوليد يوما ما ليدرج في أحضان الغرب، وينمو ويكبر ويبلغ أشده.

فإذا كانت "أوروبة" – في إبان حضارتنا – قد آنست في الشرق نارا عظيمة فقالت لأهلها:

"امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى" فلما جاءها قبست من نورها أقباسا وذهبت بهذه الأقباس فأنارت بها عقول أذكياء أبنائها، فإذا بهذه القبسة الحضارية تنمو وتكبر وتبلغ من النضج ما يشاء الله لها أن تبلغ.. ثم تعود إلينا من أبوابنا المشرعة وتتعرض لنا بسحرها ومفاتنها.. فإذا بنا نعرف منها وننكر، فهي قريبة إلى نفوسنا في بعض جوانبها، وغريبة بعيدة عنا في بعضها الآخر.. نعرف منها روحها المغامر الطلعة، لأنه روحنا المفقود.. ونعرف منها شغفها بالمجهول، وشوقها إلى كشف الأستار عن المعارف والعلوم لأنه شغفنا وشوقنا الموؤد.. ونعرف منها علومها في الحياة والفلك والطب والنبات والحيوان، لأن جذور هذه العلوم ممتدة في عقول الأفذاذ من علماء حضارتنا.. ولكننا ننكر منها عقلها المغرور الجحود، وقلبها المتفسق، وجسدها الذي يغلي بالحسيات، وعقيدتها في التجسيد والتثليث.

تُرى أيمكن أن يعيد التاريخ نفسه، وتعود "أوروبة" الغارقة في وثنياتها من جديد تبحث في " إسلامنا" عن صفاء العقيدة في التوحيد والتنزيه..؟!

هذا ما يؤمله "النورسي"، وهو يرى - أي النورسي - في خبر نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض في آخر الزمان، وأنه يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، إشارة إلى عودة المسيحية إلى أصول عقيدتها في التوحيد، جوهر الإسلام، وجوهر كل الأديان التي سبقته، وبذلك تستأنف حضارة التوحيد نهوضها من جديد.

فمن المعلوم أن "الدين" هو الذي يقود مسيرة الحضارات في فجر تاريخها الصادق، ويهيمن عليها، ويعمر ضميرها، ويرسي قواعد

ســلوكياتها وأخلاقــياتها، حتى إذا قويت واشتد ساعدها وعلا ضحاها ودلفت إلى ظهيرة عمرها جاء دور العقل لينشر سلطانه فوقها، ويستحكم فــيها، ويتحكم بها، وربما صار وثنا يتعبد له الناس من دون الله تعالى.. ثم تمضــي في ســيرها حتى تميل شمسها نحو الزوال ثم الغروب، فإذا بالعقل يتخــلى عــن عرشه، ويتركه للحس ليتربع فوقه ويصبح هذا الحس سيد العقل وسلطانه بعد أن كان خادما له.

ولا يعــني هذا التقسيم الاعتباري لأدوار الحضارات أن هناك حواجز وفواصــل ظاهــرة وحــادة بين دور ودور. فقد تتداخل الأدوار بعضها بــبعض، غــير أن طابعا عاما يظل يميز الأدوار، ويدمغها بشارته، ويعطي كل جزء زمني منها صفته الغالبة عليه.

والــدور الحســي الــذي يطغى اليوم على حضارة الغرب، قد فجر حســيات الإنسان إلى آخر مداها وطاقاتها، وفجر مع ذلك حس الأرض والســماء، وأثــار خفايا الأرض بترابها ومائها وهوائها، فإذا بها تتزلزل وتلقي بأثقالها وأسرارها بين يديه ليبتني من عناصرها مدنيته الحسية الباردة المفتقرة إلى دفء الروح وشفافية الدين والإيمان.

وقــد واكب هذه الحسية أدبها وفنها اللذان يزينان للإنسان الاستغراق حتى آخر حبة حس فيه في شهواته وملذاته.. ولعل ثمار هذه الحسية ترجع في جذورهــا إلى ذلك التصور الحسي الشاذ للألوهية والربوبية في العقيدة التي يدين بها أبناؤها.

غــير أن للنورسي موقفا من الحسية يخالف به من يرى أنها انتكاسة في الــنفس الإنســانية لا ينبغي للإنسان أن يهبط إليها، لأن الحس والشعور

مترشحان عن الحياة بل هما خلاصتها، فليس إماتة الحواس وتعطيل وظيفتها هي طريق الإنسان للارتقاء الروحي كما يرى البعض، بل على العكس من ذلك يرى: أن الحس الإنساني بأذواقه وألطافه ومسراته وآلامه، إذا وعى وأدرك، وذاق وتألق، وتهذب ورهف وثقف، صار سبيل الإنسان إلى المعارف الإلهية وطريقه إلى الارتقاءات القلبية والروحية، لأن ما من لطيفة من لطائف الإنسان أو جارحة من جوارحه، إلا ويمكن أن تصبح طريقه إلى الله تعالى إذا أحسن توظيفها في الغاية المرجوة.

فالسمع والبصر والفؤاد والعقل، كل هؤلاء موضع الخطاب القرآني، وهي مناط التكليف في الدنيا والمسؤولية في الآخرة.

فالإسلام أو بالأحرى حضارة الإسلام إنما هي وحدة واحدة تبدأ بالعقيدة وتنتهي إليها، فالروح والعقل والحس، يتداخل بعضها في بعض وتمشي جميعها جنبا إلى جنب في كافة مراحل تطورها، لذلك كانت الآخرة - بجنتها ونارها - بناء حي تتعذب فيها حواس الإنسان أو تتنعم، كما أن غالبية معجزات الأنبياء عليهم السلام معجزات حسية تتحدى أسماع الناس وأبصارهم.

لأن النبي أو الرسول إنما يتعامل في إتيانه بالمعجزة مع مادة الكون المشاهدة والمحسوسة ففي خرقه لبعض النواميس والسنن الكونية ساعة الحاجة إليها ليس أمرا مستغربا من إنسان هو جزء مهم من هذه النواميس والسنن ولكنه ليس حبيسها ولا سجينها، غير أن الكون هو سجين نواميسه، وحبيس سننه.

فالنبي أو الرسول عليهما السلام قد يكسر بمعجزاته جانبا من هذه

الأغـلال والقـيود التي تكبل الكون، فيستجيب لهذا الكسر أو الخرق - شـأن الإنسـان الحبيس - استرواحا وتخفيفا من بعض قيوده الثقال ولو للحظة واحدة.

وهذه المعجزات وإن كانت قد أعطيت للأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسـلام، لـتحدي أقوامهم، وتوكيد نبوتهم ورسالتهم، إلا أن فيها إلى جانب هذا الهدف الأهم أهدافا أخرى تنطوي - كما يرى "النورسى" - على إشارات علمية، وبشارات بمستقبل علمي زاهر ستحققه البشرية يوما مـا في تاريخهـا الطويل، كما أنها - أي المعجزات - ترسل للبشرية من مكانها وزمانها البعيدين حافزات لقواها العقلية كي تطور قدراتها العلمية، وتحاول اللحاق بقدر المستطاع الإنساني بالنهايات التي حققتها المعجزات.

فـإذا كـان "النورسي" قد ربط هذا الربط الذكي بين المعجزة وبين العلم، إلا أنه يرى أن "القدرة" هي روح المعجزة وقوامها، بينما "الحكمة" هي روح العلم وقوامه، فالمعجزة تقع بالأمر الإلهي: "كوني" فتكون، بينما العلم لا يأتي إلا بالجهد والصبر والعمل الإنساني الدؤوب.

فالعلم من وجهة نظر "النورسي" يطلعنا على مظهر من مظاهر قوة الله وعظمـته الكامنة في لغزه، والجارية في خفاياه، وهو جدير بالمؤمنين قبل غيرهـم، لـذا يجب أن يكون في كل لبنة من صرحه العظيم قلب مؤمن وحـس مسلم، وعقل عابد، لا قلب كافر، ونفس ملحد، وقد آن لهم أن يكفـوا، أن يكونـوا من طالبيه لدى الآخرين، بل من صانعيه لأنفسهم بأنفسـهم، فهـو الحـق القـوي الذي يحتاجونه اليوم حاجتهم إلى الماء والهواء.. ولأن العلم هو النفس المنفوث من وحي الله، والمودع في جوف

الكـــون وضمير الأرض والسماء، صار لزاما أن يتلقوه باللهفة نفسها التي يتلقون بها وحي الله في قرآنه الكريم، لأن الوحيين كليهما يشيران إلى الله تعالى، ويدلان عليه.

وقل ممن كتب في الإيمان من هداه وجدانه لالتقاط ذلك النغم الجميل في موسيقى الحياة، والمتجاوب صداه بين نبض الكون، ونبض الإنسان.

وقل منهم من وفق إلى رصد هذا اللحن الفريد وتسجيله بشكل دقيق ومجسم في كل أعماله الفكرية والوجدانية كما فعل "النورسي" رحمه الله.

فقـــارئ كتـــبه ورسائله لا يحتاج إلى كبير عناء ليلحظ الربط المحكم والشد الوثيق بين قلب الكون وقلب الإنسان، حتى ليكاد يحس من خلال أحاديثه عنهما - والاستشهاد بمعلوم صفات أحدهما على مجهول صفات الآخـــر - وكأن الإنسان هو الكون مصغرا، والكون هو الإنسان مكبرا، وبـــين وجدانـــيهما تتصادى لحون المحبة والود والتعاون والتساند، لدفع مســـيرة الإيمـــان الكبرى على هذه الأرض نحو هدفها السامي في تقديم فروض الطاعة والعبودية والولاء - مشحونة بالمزيد من الفهم والإدراك - للخلاق العظيم الذي يدين له كل من الكون والإنسان بالوجود والحياة، فيقول معبرا عن هذه الحقيقة:

"أجـــل لمـــا كان الإنسان خلاصة جامعة لهذا الكون، فإن قلبه بمثابة خريطة معنوية لآلاف العوالم، إذ:

كمـــا أن دمـــاغ الإنسان - الشبيه بمجمع مركزي للبث والاستقبال السلكي واللاسلكي - هو بمثابة مركز معنوي لهذا الكون، يستقبل ما في

الكـــون من علوم وفنون ويكشف عنها، ويبثها ايضا، فإن قلب الإنسان كذلك هو محور لما لا يحد من حقائق الكون والمظهر لها، بل هو نواها".

والنورســـي في هذه التجربة الفريدة إنما يفتح الطريق لاحبة لمن يريد ســـلوكها، ويرسي معالم فكر وجداني كوني النظرة، إيماني الملمح، يمكن لكل أديب أو متأدب أو صاحب قلم أن ينهل منه، ويحذو حذوه، وينسج عـــلى مـــنواله، في إثراء "أدب الإيمان" ومنحه الأبعاد الكونية التي تعمق رسوخ قدمه، وترفع من علو صرحه، في هذا العصر الذي غدا الكون فيه موضـــع نظر الإنسان، ومحل فكره، وحقل علمه، ومسار سفره، وساحة تجاربه؛ في طي الأزمان واختصار المسافات.

وقـــد اســـتطاع النورســـي أن يوظف بمهارة فائقة الملاحم الكونية، ودلالاتهـــا الرمـــزية في تربية "الوجدان الإيماني" الذي يرى في هذه العلوم وتطبيقاتها بعض ما أومأ إليه الدين وأشار إليه منذ أيامه الأولى.

فتربـــية وجـــدان المسلم، وتلوينه بلون العصر الذي يعايشه من دون مســـخه أو استلاب أصالته، كان وما يزال من أبرز اهتمامات المفكرين والمربين منذ بواكير الإسلام الأولى، وحتى يومنا هذا، وقد سجل التاريخ، أسماء جمهرة كبيرة من هؤلاء المربين في مختلف عصوره وأزمانه، كانوا قد أسهموا بقدر أو بآخر في تشكيل هذا الوجدان وتهيئته لمتطلبات زمانهم.

والنورســـي شأنه شأن المربين الآخرين قد كرس معظم جهده لتربية وجدان المسلم في هذا العصر الكوني الذي يظلنا، ويسيطر على اهتمامات العـــلماء والمفكـــرين وقادة الرأي على مختلف مناحيهم واتجاهاتهم، فهو يـــرفض للمسلم أن يحيا على هامش العصر، أو على حافاته البعيدة متزويا

طلبا للسلامة والنجاة من تكاليفه ومسؤولياته، بل يريد له أن يحيا في قلبه، وفي الحشاشة من لبه، يتأثر به، ويؤثر فيه.

ونقطـــة الانطلاق في منهاج "النورسي" التربوي تبدأ من "الحياة" التي تتلبس الإنسان، وكل شئ حي، مرورا بالكون، ووصولا في نهاية المطاف إلى خالق الكون والإنسـان: وإن إلى ربك المنتهى.

فالحـــياة في الإنسان شئ جميل ومقدس، تكتسب قدسيتها من قداسة المـــانح والمعطـــي خالق الحياة، فإذا اقتنع الإنسـان بقداسة الحياة التي بين جنبـــيه، واعـــتقد نفاستها وعظمتها، وطهارة منبعها، حرص عليها، ولم يلوثهـــا أو يدنسها، ولم يفرط بها، أو يتهاون في شأن ترقيتها، أو يحقرها ويهـــبط بهـــا، أو يحسها عبئا ثقيلا يرغب - أحيانا - بالتخلص منها، أو يـــنزل بها منازل الحيوان، أو يجعلها في خدمة من يعطي فيها ثمنا أعلى، أو يركسها وينحط بها إلى درك الدنس والخنا والخسة والجريمة.

فالحياة - كما يصورها "النورسي"-: "هي خلاصة مترشحة من هذا الكـــون.. والشعور والحس مترشحان من الحياة، فهما خلاصتها، والعقل مترشح من الشعور والحس فهو خلاصة الشعور".

فإذن الجهل بالكون يعني جهلنا بالحياة نفسها، كما أن معرفة أي جزء منه تستلزم معرفة شاملة بأسراره، مما يهيئ للإنسان فرصة التعلم، وهكذا يدخـــل دائرة التعلم ان لم يكن مؤهلا ليصبح من مبدعي العلماء، الأمر الـــذي يدفـــع به إلى روح عصره غير بعيد ولا منكفئ ولا هامشي على زمانـــه ووقته. ومع ذلك فإنه لا ينبغي أن يغيب عن بالنا بأن "العلم" إنما يأخذنـــا إلى مـــا هو نسبي وتقريبي من الأشياء، فمازال العلم حتى هذه

الساعة عاجزا عن اكتشاف أصول الأشياء وحقائق كنهها وماهياتها، وإن كانت له اليد الطولى في اكتشاف علاقتها بعضها مع البعض الآخر، اذ لا يوجــد في العلوم ما هو مطلق الصحة، ففي الكثير منها أجزاء افتراضية، حتى أن القوانين العلمية نفسها ليست من الحقائق المطلقة.. غير ان النفس البشــرية تســلك بنا سبيل المطلق على الدوام، فهي تبحث وتفتش عن "المطلق" الذي يملؤها عظمة وخشوعا وجلالا..

ولا يتصــورن أحــد - كما ينبه النورسي - أن البحث عن المطلق وانــبعاث الأشواق إليه، والتعلق به، من حيث كونه يشكل عنصرا مهما مــن عناصــر مكونــات "وجدان المسلم" يعني الهروب من العقلي إلى "اللاعقلي"، أو الانسلاخ من المنطقي إلى "اللامنطقي" كما يريد أن يوهمنا بعض المحسوبين على العلم والعقل.

فمــا مــن حقيقة دينية - إذا ما فحصت جيدا - إلا وتنطوي على عناصــر عقلــية، كمــا أن اشد الفلسفات عقلية تشتمل على كثير من العناصــر الدينــية إذا تعمقنا أصولها وأساسياتها. وفي الغالب ترى أنصار المذهــب الوجداني يأتون بأدق البراهين العقلية كما هو مشاهد مثلا عند "الغزالي" و "النورسي" وغيرهما.

فإبعاد الدين عن الدائرة المنطقية والعقلية مسألة فيها نظر، فالدين الحق الذي لم تصبه يد التحريف، أو تدخله عناصر غريبة عنه، هو دين عقلي لا يجافي العقل، أو يناكف المنطق، وما "علم الكلام" الإسلامي في زمانه إلا مرحلة متقدمة من مرحلة "عقلنة الإسلام وصورة من صور هذه "العقلنة" مــا قــبل عصر العلم الحديث، وقد أمكن تطوير هذا العلم - كما فعل

النورسي - ليلائم العصر العلمي والكوني الذي نعيش أيامه.

ونكــاد نلمس صدق هذا الكلام فيما تضح عن فكر "النورسي" من "وجدانــيات" ارتفــع ببراهينها العقلية حد اكثر العقول منطقية، وسما بها سموا يكاد يلامس صفاء اعظم الأرواح الشاعرية شاعرية، ففي كلامه عن تدفــق الحــياة وسريانها الموسيقي المتناغم في أوصال الكون، وما تبثه من عزاء في نفوس المغتربين بإيمانهم وعقيدتهم يقول مخاطبا طلبته:

"لو سكن طنين البعوض، وهدأ دوي النحل، وصمتت كل الأصوات، فــلا تأسوا ولا تحزنوا، ولا تخمد أشواقكم، أو تضعف همتكم أبدا.. لأن الموسيقى الإلهية العظيمة التي تجبجل بنغماتها الكون في رقص وانتشاء، وتهز بأشجانها أسرار الحقائق، لن تسكن أبدا، ولن تهدأ.. بل تستمر قوية عالية هادرة تعلن عن مبدع الوجود الذي ينتهي إليه كل موجود".

أجــل، إنهــا لــن تسكن ولن تهدأ.. وتظل تهتف بكم ومعها صوت النورسي آتيا من وراء الغيب:

"انهــض من جديد أيها المسلم العجوز.. شق أكفان عجزك.. وانفض عنك تراب قبرك.. انبعث فتيا ممتلئا حياة وقوة وعزما أيها الشيخ الفاني.. عــد أيها الغريب المتواري وراء الزمان فقد طال شوق الدنيا إليك.. توار يــا شــتاء الروح.. وتفتح يا ربيع العقل.. وازدهري بأزهار الإيمان أيتها الــنفوس المجدبــة.. تهللي يا غربة الإسلام.. وابتهجوا وابشروا يا خدام القرآن.. يا غرباء هذا العصر.. فرسولكم ﷺ قد قال فيكم: "بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء".

ايحاءات داغستانية[1]

هتاف الأرواح

مهداة إلى أولئك الفتيان الشجعان الآتين من كـل مكـان إلى أرض "داغستان" ليقيموا فيها معـاهد العـلم والعرفان ويعلوا منارات الهدى والإيمان.

(١)

لـو أصغيتم بآذان أرواحكم في سجو الليالي وفي هدوات الأسحار، لسـمعتم هـتاف أربعين صحابيا يرقدون فوق روابي هذه المدينة[2] وهم ينادونكم قائلين :

انـتظرناكم طويـلا .. سـألنا عنكم الغادين والرائحين من ملائكة السـماء: أيـن فتيان الإيمان .. متى يقدم حملة القرآن؟.. الشوق إليكم أضـنانا.. والحـنين للقياكم عذبنا .. وها أنتم اليوم هنا.. فلأرواحنا أن

---

١ كتبـت هـذه الخواطـر سنة ١٩٩٩-٢٠٠١ في دربند من مدن داغستان عندما كنت مدرسا في جامعة " دربند" الخاصة.

٢ المقصـود "مديـنة دربـند" وهي إحدى مدن داغستان التي يفخر أبناؤها بأن مدينتهم تضم رفات أربعيـن صـحابيا كانوا قد استشهدوا خلال الفتح الإسلامي لهذه البلاد سنة ٣٢ هـ في خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه.

تسعد، ولوحشتنا أن تأنس، ولغربتنا أن تتأسى بكم في هذا القفر الموحش المجدب من صحاب الإيمان، والممحل من أشقاء الروح والوجدان.

(٢)

لا نقـــول لكم أحرقوا كل شيء يغريكم بالعودة من حيث أتيتم كما فعل طارق بن زياد من قبل، ولكنا نقول: أحرقوا وجودكم كله، وأشعلوا النار في أرواحكم، ثم انثروا حبات هذا الوجود المحترق فوق هذه الأرض، فـــلا تغادروها - إذا غادرتموها- إلا لتعودوا إليها لأنها صارت جزء من وجودكم وقطعة عزيزة من كيانكم.

(٣)

تتســـاءلون ما هذه النار التي آنستم وجودها في هذا المكان من بعيد، والتي جذبتكم للمجيء إلى هنا، ونحن نقول لكم: إنها قبس من نور عظيم كـــنا قـــد حملناه في أفئدتنا إلى هذه الأرض، ولكنها اليوم ذبالة مرتعشة وجلـــة توشك على الانطفاء إلى الأبد، وإننا لنناشدكم -يا أبناءنا البررة- ألا تدعـــوا هـــذه الذبالـــة تخفت وتنطفئ، انفخوا فيها من أرواحكم.. ألقموهـــا قلوبكـــم وأطعموها عقولكم لتعود تتأجج من جديد وتنير لهذا الشعب مصابيح الهدى والإيمان.

(٤)

جئـــتم إلى هـــنا مدفوعين بقوة قدرية لا تقاوم.. فأنتم مبعوثو القدر وســـفراؤه إلى هذه البلاد، لقد اجتزتم بوابة آسيا الكبرى، وفتحتم الطريق لمواكب الإيمان من بعدكم، ولعل حدس أستاذكم النورسي بنهوض آسيا

على صوت الإسلام من جديد يوشك أن يصدق.. فأنتم هنا هذا الصوت العظيم الذي سيتردد صداه قريبا في عمق أعماق آسيا.. فاهتفوا ولا تنوا عن الهتاف ورجوا الأرض بهتافكم، وهزوا الأبواب الموصدة في وجوهكم، فمن أدام الطرق فتح له ولو بعد حين.

(٥)

لا تقولوا: ما نحن؟ ومن نحن؟ وأنى لنا أن نعيد لكلمة التوحيد وهجها فوق هذه الأرض؟ وأنى لنا أن نعمر أرضا خرابا عملت فيها معاول الهدم والتخريب خمسة وسبعين عاما؟ وكيف لنا أن نبذر بذرة الإيمان في أرض قاحلة جرداء؟ وبماذا نشق الأرض ولا رفش ولا محراث؟ ونحن نقول لكم: إن عز المحراث فلتكن أظافركم هي المحراث الذي به تحرثون.. وإن عز الرفش فلتكن أسنانكم هي الرفش الذي به تحفرون، ولأن صوت الحياة القرآنية هي التي تتكلم في دواخلكم، فسوف تصغي إليها حبات التراب وجلاميد الصخور، بل ستصغي إليها الأرض والسماء، وكل الكائنات ستأتيكم طائعة منقادة.. ها هي فرصتكم -يا أبناءنا- كي تعلموا البشرية كيف يمكن للإيمان والإخلاص أن يأتي بالمعجزات، وتعلموا العالم أن وجودكم هنا هو الدليل الأقوى على عالمية الإسلام وعمومية القرآن.

(٦)

لا تستمعوا إلى أولئك المثبطين والمعوقين الثرثارين، وهم يتخافتون متهامسين: أي خيال ضبابي يتشبث به هؤلاء.. وأي حلم وردي يغرقون أنفسهم فيه.. وأية آمال بعيدة المنال يركضون وراءها؟

ونحــن نقول لكم -يا أبناءنا- ليس الخيال هو ما نخافه عليكم، وإنما نخــاف عليكم افتقاركم إلى الخيال.. فما أكثر ما بعثه الخيال من الهمم.. وحفز من الأذهان، ودل وأشار إلى خفايا من الحقائق ما زال العقل يدين بهــا إلــيه.. وجودنا هنا بل وجودكم أنتم كان حلما من الأحلام، وهو الــيوم حقيقة من الحقائق.. وما هو خيال اليوم يكاد يكون حقيقة غدا.. والأمة التي يعقم خيالها يعقم ذهنها ويتبلد وجدانها.

(٧)

أحــبوا "داغستان" بكل حبة من قلوبكم.. وليكن همكم بها فوق كل هــم.. ومحبتها فوق كل محبة.. فإذا أحببتموها سهل عليكم ما تلقونه في سبيلها من متاعب ومشقات، وسهلت عليكم التضحيات.

يقال: إن البلبل إذا تعشق وردة وأراد أن يغنيها حبه غرز شوكتها في صــدره وشرع يغني لها أشجى ألحانه وأعذبها.. وأنتم كذلك -يا أبناءنا الأعزاء- دعوا بلابل الإيمان في صدوركم تغني "داغستان" أعذب الألحان رغــم مــا يوخــز صدوركم من أشواكها.. فهي وردتكم ووردة آسيا الوسطى التي يهون كل شيء من أجل أن تسمع عنكم وتصغي لكم وهي ماسة القفقاس المتلألئة في تاج جمالها، لكنها تتأبى عمن يرومها إلا المحبين الذين يشفع لهم عندها إخلاصهم في حبها وهداياهم إليها، وهل من هدية هي أثمن من الإيمان الذي تقدمونه إليها وتحبونها به..؟

***

إيحاءات داغستانية :

خبز الخلود !

(١)

لـــو أعطيتني الدنيا كلها .. لو توجتني ملكا عليها .. لو ملكتني زمام أمـــرها.. لـــو طويتها ووضعتها في جيبي .. لو حملتها على طبق وقدمتها على مائدة روحي ..لو اعتصرتها في كأس وجعلتني أتحساها حتى الثمالة.. فإنك – في الحقيقة – لم تفعل شيئا، و لم تعطني سوى قبضة ريح، وحفنة تـراب، لا تلبث أن يلفها الزوال ويطويها العدم، بينما يظل لهيب الشوق في أرجـــاء نفســـي مســـتعرا، وصراخ الجوع إلى خبز الخلود يهز أسماع الفضـــاء، ونـــازع الفطرة إلى البقاء والأبد يهيج في الروح نواحا كنواح الثكالى.

(٢)

أبـــو الأنبـــياء إبراهـــيم عليه السلام، صرخ بوجه الكون: (لا أحب الآفلـــين) (الأنعام:٧٦) إمض عني.. تنح عن طريقي.. لا أريدك.. ليحترق العالم كله.. ليتحول إلى رماد.. ليطوه الفناء.. فليس هو من همي.. وليس هو مطلبي.. مطلبي مكون الكون.. محبتي لمن لا يزول.. قلقي بمن لا يفنى ولا يموت.. عبوديتي لأبدي البقاء.

يقـــذف به النمرود بالمنجنيق، يدركه جبريل عليه السلام وهو يهوي نحو النار المتأججة فيقول له: ألك حاجة ؟

فيرد أبو الأنبياء: أما إليك فلا !

يقول جبريل: سله ..أي سل الله حاجتك.

يقول إبراهيم: عليم بحالي غني عن سؤالي.[٣]

وفي الحديث: (لو قال: نعم لي إليك حاجة لمحي اسمه من ديوان الخلة)

النورسي رحمه الله يلخص لنا هذا الموقف الإبراهيمي بعبارتين فيقول: "تعلق أيها المسلم بالأبدي تتأبد.. وصل أسبابك بأسباب الخلود تخلد".

(٣)

في المعـــراج يقـــول الله تعالى عن رسوله الكريم **(ما زاغ البصر وما طغى)** (النجم:١٧) رغم عظم ما شاهده ﷺ من مظاهر الجلال والجمال في أرجاء الكون، فقلبه الشريف ظل متعلقا بصاحب الجمال الأقدس والجلال الأعظـــم، ولم يلتفـــت طرفة عين إلى الفانيات الكونية، وبهذا حاز مرتبة المحبوبية والأقربية التي لم يحزها نبي ولا رسول قبله .

الشوق المضطرم في قلبك إلى معالي الأمور هو دليل حياتك، من يخل قلبه من الشوق يمت وإن بدا للناظرين حيا.. من لم يتحول الإيمان في قلبه إلى طاقـــة مـــن الشوق إلى الله والمحبة لرسوله لا خير في إيمانه لأنه لا يأتي بخـــير.. لتكن نفوسكم توافة إلى الخلود، وتواقة إلى الجنة.. لترتفع ببصرها عن الفانيات الهالكات ولتستشرف ببصيرتها على الباقيات الخالدات..

مجـــدد القرن الثاني الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز يقول بعد أن لم يبق فوق الخلافة والحكم منـــزلة يتوق إليها: "إن لي نفسا تواقة ما تاقت

٣ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٥ /٤٠٠.

إلى شئ ونالته إلا وتاقت إلى ما هو أعلا منه، وهي اليوم شديدة التوق إلى الجنة"[٤] ويتوفاه الله بعد هذا الكلام بأيام.

(٤)

لأجـل الرسالة العظيمة التي يحملها المؤمن كان أفضل مخلوقات الله. وأنفـس كائـناته، وأحـبهم إلى موجوداته، ففي الأثر: إن الجبل ليقول للجـبل: سـعدت الـيوم بخطـا مؤمـن مشى فوق ظهري وسار بين شـعابي..وإن الأرض لـتقول للأرض: شرفت اليوم بسجدة مؤمن فوق تـرابي.. وإن الشجرة لتقول ليت الذي يستظل بظلي ويأكل من ثمري لا يكـون إلا مؤمـنا، وتقول حبة القمح: ليتني لا أغذو إلا جسم مؤمن، وتقول قطرة الماء ليتني لا أروي إلا عروق مؤمن.[٥]

(٥)

في غسـق هـذه البلاد سطعت شمس إيمانكم.. فهبوا أملأوا الأقداح الظامـئات من أنوار قلوبكم.. أعطوا ولا تأخذوا.. جودوا ولا تبخلوا.. ارسـلوا ولا تمسـكوا.. تكاثروا تزاحموا عندما يفزع الإيمان.. وانصرفوا راشدين عن مواطن الأجرة والجزاء.. هكذا كان أجدادكم يكثرون عند الفزع، ويقلون عند الطمع.. كونوا عطاء خالصا لتحيوا.. الشجرة تموت حـين تكف عن العطاء.. إيمانكم يضعف ويهزل إذا هو لم يعط من ذات نفسـه.. لمـن أنفاس الإيمان في صدوركم..؟ أليست هي هدايا الرحمن إلـيكم..؟ أليس لكل شئ زكاة..؟ فلتكن زكاة إيمانكم مزيدا من العطاء

---

٤ المناوي، فيض القدير ٣ /١٦٠.

٥ الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن١٠ /٢٦٧.

لفقــراء الإيمان.. لتكن ذواتكم النورانية كنــزا مبذورلا لكل المظلمين في كــل مكـــان.. إن الأرض لتهتز طربا لمس أقدامكم وإن السماء لتندى ابــتهاجا بأصوات دعائكم.. والجنة نفسها ترنو إليكم رنو الوامق المشتاق من فوق سبع سماوات.. وملائكة الرحمن تستغفر لكم مادمتم في طاعة الله وفي نصــرة دينه.. إياكم والصبوة إلى شهوات الدنيا وملذاتها فإنها تطفئ جــذوة الروح.. وتملأ القلب ظلاما.. والبصيرة عمى فتحرمون الرؤية إلى حقيقة رسالتكم ومغزى وجودكم..

(٦)

الحوار الآتي جرى يوما ما بين أستاذنا "النورسي" وبين رفيقه وتلميذه "الملا رسول":

قال ملا رسول: على رسلك يا أستاذي.. هون عليك.. أرح نفسك قلــيلا.. فنحن كذلك نخاف الله ونخشاه.. أما أنت فتكاد مرارتك تنشق من خشية الله.. أنظر إلى إصبع قدمك كيف تقرح بسبب جلوسك الدائم وكأنك في صلاة لا تنتهي..

يجيب الأستاذ قائلا: يا ملا رسول.. لقد جئنا إلى هنا لكي نظفر بحياة أبديــة خالدة بهذا العمر القصير والدنيا القصيرة.. أأعيش هنا كيفما أشاء وكما تهوى نفسي وأنا أسعى إلى الجنة وأطلبها..؟! لا أجرؤ على العيش كما أهوى أبدا ..!

***

إيحاءات داغستانية :

العربية لغة الروح والوجدان

(١)

يحـــق للعربية أن تفخر بكونها المصطفاة من بين لغات العالم لنـــزول القـــرآن الكـــريم بلسانها. والقرآن قمة ما فوقها قمة في إعجازه البلاغي، أجمـــع عـــلى هذه الحقيقة بلغاء العربية منذ نـــزوله قبل أربعة عشر قرنا وحـــتى هـــذا الـــيوم، فكان لهذه اللغة شرف حمله إلى العالم، وتبليغه إلى البشـــرية، فعـــلا قدرها بعلوه، وخلدت على الزمان بخلوده. وإليه يعود الفضـــل أولا وآخرا في حفظها من الزوال والاندثار كما زالت واندثرت كثير من لغات العالم.

والعربية ذات حس روحاني، يستمد روحانيته من جذورها الغائرة في طـــبقات الـــتاريخ، ومـــن عروقها السامية الضاربة في أصول الديانات والحضـــارات القديمة، لذا فهي لا تعطي أقصى طاقاتها البيانية إلا إذا كان الموضوع المعالج بلسانها فخما عالي المعنى، شريف المقصد، ومتصلا بسبب من أسباب الروح.

ومن هذه الخاصية جاءت قدرتها الفائقة على أن تكون سماء عالية لألمع نجـــوم القرآن، ولأسمى معانيه فغدا ارتباطها به ارتباطا ملحميا متينا. فلا يذكـــر إلا وتذكـــر معه ولا تذكر إلا ويذكر معها، ومن هذا الارتباط

الملحمي بينهما أصبحت علوم العربية وآدابها مدخلا لا بد للدارسين والباحثين في علوم القرآن من الولوج منه، فمعرفة نحو العربية وصرفها وبيانها وبديعها وأسرار بلاغتها هي المدخل إلى أي علم من علوم الدين.

(٢)

والعربية تنفرد بخصائص جمالية وفنية قلما نجدها في لغة أخرى، فهي لغة مطواع بين يدي الأديب أو الشاعر، يشكل من طينة كلماتها ما يتسع له خياله من صور وأشكال، ثم ينفخ فيها من روحه فإذا المعنى صورة، وإذا الكلمات لوحة، وإذا قلم الأديب قد قام مقام ريشة الرسام. فصور وجسم ولون، وهذه القدرة العجيبة على التشكيل والتلوين لدى هذه اللغة دفعت ببعض النقاد إلى تسميتها بـ "اللغة الشاعرة".

ولا أظننا نجانب الصواب إذا ما نعتناها بنعت آخر إلى نعتها الأول فأسميناها "اللغة الساحرة" لما تتمتع به من قوة استحواذ على النفوس، ونفاذ في العقول. وربما إلى هذا الإشارة في قوله ﷺ : (إن من البيان لسحرا)[٦]

ويجدر أن نشير هنا إلى أن نعتي "الشعر" و "السحر" كانا المفضلين لدى كفار قريش لنعت القرآن والرسول في بدايات الدعوة الإسلامية. حتى أن أعرابيا جافيا يسمع قارئا يقرأ: (فاصدع بما تؤمر) (الحجر:٩) فلا يملك نفسه فيقع ساجدا، ولما قيل له: ويحك آآمنت ؟! قال : لا، ولكني سجدت لبلاغة هذه الكلمة.[٧]

---

٦ البخاري، كتاب الطب ٥٧٦٧؛ أبو داود، كتاب الأدب ٤٣٥٦.

٧ انظر الكلمات للنورسي ص ٣٤٦.

(٣)

وما من شك في أن ثمة تشابها من نوع ما بين السحر والشعر، فكلاهما ينبعثان من قوى خفية غامضة تكمن فيما وراء المعلوم والمحسوس، وكلاهما يستخدمان ما في الكلمات من طاقات بناء أو تدمير. وكلاهما يؤثران في المتلقي سلبا أو إيجابا، غير أنهما يختلفان بعد ذلك اختلافا كبيرا فيما يصدران عنه وينبعثان منه، فالسحر يستمد قواه المدمرة من منطقة ظلامية رهيبة تختفي في أغوار بعيدة من النفس، بينما الشعر طاقة شعورية إنسانية تستخدم اللغة للتعبير عن نفسها، وتتلون هذه الطاقة بلون المشاعر المنبعثة عنها كالتعبير عن الخير أو الشر، والحزن أو الفرح، وليس هناك حالة خامسة يمكن أن تتلبس الإنسان وتلون مشاعره، وكل الأغراض الأخرى التي قيل فيها الشعر لا تعدو أن تكون فروعا من أصول تلك الأحوال الأربع.

(٤)

ولغة القرآن تعلو على هذه المشاعر البشرية جميعا، ولا تلتفت إليها وهو – أي القرآن – غير معني بأهواء النفس البشرية أو بالتعبير عنها، لأنه ليس شعرا ليفعل ذلك، ولا سحرا أسود ليستثير هذه المشاعر في الهدم والتخريب .

فالقرآن مهتم بقضايا الإنسان من حيث كونه كائنا كونيا له رسالة هادفة هي إعمار الحياة والارتفاع بها في مراقي الارتقاء حتى تبلغ مستويات عالية من الجمال المادي والمعنوي .

ولما كانت "العربية" روحية المنبت في أصولها التاريخية الأولى فلا جرم أن يغشاها سر من أسرار الروح، ويكتنفها بعض من قواه الآسرة، والنافذة في النفوس، الأمر الذي جعل القريشين يتوهمون أن ما يسمعونه لا يعدو عن كونه شعرا أو سحرا لما كانوا يحسونه عند استماعهم له - أي القرآن - من تأثير يأخذ بقلوبهم وعقولهم.

(٥)

وكثرة الوجدانيات في تراث العربية يرجع في جملته إلى خاصيتها الروحية، فهذه الخاصية تغري المنشئين كتابا وشعراء أن يستثيروا الجوانب الروحية والوجدانية. فيما يبدعون من نثر أو شعر. فما تعرفه العربية من الشعر والشعراء يكاد يزيد على ما تعرفه الدنيا منهما، ولهذا نستطيع القول: إن العربية لغة الوجدانيات لا ينازعها في ذلك منازع.

(٦)

وحين نقول: إن "العربية" لغة الوجدانيات، فنعني بذلك أنها لغة الحياة فالحياة أخصب وأوسع من أعظم الأفكار والفلسفات، والوجدان أعلق بالحياة من كل فكر وألصق بها، فالوجدان والحياة صنوان لا يفترقان.

فنحن نعيش الحياة بالوجدان قبل العقل، ونحياها بالشعور والحس قبل الفكر، ومن خلال الوجدان نلمس أجمل ما في الحياة من معان، ومن خلاله نستطيب الحياة رغم آلامها وأحزانها ونستزيد منها، كما يقول أبو العلاء المعري:

تعب كلها الحياة وما عجبي إلا من راغب في ازدياد

(٧)

وقـــد قـــدر للعربية أن تنشأ وتنمو في أحضان الشرق مهبط الديانات ومواطـــن الأنبياء والرسل، فأخذت وأعطت، وتأثرت وأثرت، وكان لها شـــرف الإسهام في إغناء وجدان الشرق وفي تشكيل نوازعه الروحانية، وبالمقـــابل فقد تأثرت بما كان يفيض عن هذا الوجدان من أسفار الحكمة والشعر والقصص والأساطير والمراثي والملاحم والبطولات.

ومن خلال هذا الشرق الخصب الموار بنوازعه الروحية والدينية مضت العربية تشق طريقها عبر هذا الزحام الهائل، فمضت تتصفى وتعذب وترق حتى بلغت قمة نضجها وجمالها على لسان خلص أبنائها من قريش معدن العـــرب والعـــروبة. ثم توج هذا النضج والجمال نـــزول القرآن بلسانها، فغدت بذلك صلة الوصل بين وجدان القرآن ووجدان العالم في كل زمان ومكان .

***

إيحاءات داغستانية :

سلاما يا ليل "دربند"

(١)

سـلاما يا لـيل "دربـند".. سقيت الروح والريحان.. ورويت الود والنحـنان.. يـا ظل الكون على أكبدنا الحرى .. ويا فيء الزمن على أفئدتنا العطشى.. طال دربنا.. كلت أقدامنا.. استوحشت أرواحنا وآدت قلوبـنا حـتى التقيناك، فإذا بحادي الركب يهتف بنا: هنا نحط رحال العشـق، وننصـب خـيام الهوى..تحت جنح هذا الليل المضمخ بأريج الصـحاب [8]، والمعطر بمسك دمائهم، والندي بندى أرواحهم، والمترع بنور إيمانهم..!

ناغـنا..سـامر قلوبـنا.. تعطف علينا.. آنس غربتنا.. دعنا نستظل بظلـك.. ونتفـيأ برد فيئك.. تدفق حنانا علينا.. تساكب لطفا فوقنا.. تواجـد عشقا نحونا.. نحن أحفاد أولئك الراقدين تحت سمائك الناشرين الطيب في أنحائك..!

(٢)

يـا ليل "دربند" لا تخش ظمأ بعد اليوم.. فبدموع الوجد منا سنسقي صحاراك الظامئات، ونروي زهراتك المصوحات.. وبأنين التائبين النادمين

٨ هم شهداء الصحابة الأربعين الراقدين فوق روابي " دربند "(داغستان).

منا ستظللك سحائب الرحمة وتتنـــزل عليك لطائف الود، وبهتاف المحبين المحـــترقين بحـــبهم ستتفتح أبواب السماء وتهبط عليك الرحمات وتغشاك السكينة، أبدا لن تجف منا العبرات.. لله نحزن.. وله نسكب الدمع.. وإليه نجـــأر بالدعاء.. وعلى أعتابه نمرغ الوجوه.. ويذوب منا الوجود.. وعلى "بـــاب الأبـــواب" نرابط نحمي "كلمة الله" من الضياع ونصونها بالمهج والأرواح..!

(٣)

يـــا "باب الأبواب" [٩] ما اكثر ما اصطرعت عليك شعوب، والتحمت مـــن أجلك أقوام، وسالت على بابك دماء.. والتقت من خلالك أديان وحضارات.. كل شئ فيك تاريخ ناطق أو إشارات إلى تاريخ.. التراب.. الأحجـــار.. الصـــخور.. القبور.. القلاع.. الحصون.. البحر.. الجبل.. الأرض.. الســـماء.. بـــل الإنسان نفسه، إنه تاريخ متحرك من مجموعة أخلاط عجيبة من الأقوام والشعوب واللغات والأوطان انصهرت كلها في أتـــون الـــزمن فـــتخلق منها إنسان جديد هو خلاصة مصطفاة من هذه الأخلاط والأمشاج!

(٤)

عـــلى أعـــتاب "بـــاب الأبواب" تسكب العبرات.. وتذوب النفس حســـرات.. ويتمزق القلب حزنا وأسى.. على هذا الباب صلب الإيمان

---

٩ تسمى كتب التراث مدينة "دربند" بـــ " باب الأبواب" وربما لأهميتها وكونها الباب الذي يدلف منه القادمون من أوربا إلى آسيا الوسطى وبالعكس/ انظر معجم البلدان لياقوت الحموي.

مرة ولكنه لم يمت.. تناوشته سهام الكفر فأثخنه الجراح ولكنه لم يمت.. جرعوه الصاب والعلقم فتهاوى مدنفا ولكنه لم يمت.. حاصروه.. حرقوا كتابه.. سجروا به تنانير حقدهم لكنه ظل حيا في القلوب و لم يمت.. لأنه حياة أقوى من كل حياة..وحياة فوق كل حياة..!

(٥)

يا ابن "دربند" في أغوار روحك يسكن تاريخ أرضك.. روحه المعذبة مسكوبة في روحك.. إنه يغور بكل آلامه في أعماقك.. يخصب حياتك لكنه يلونها بالأسى.. يشكل عقلك لكنه يثقله بالهم.. لا يمدك إلا بمرارات تجاربه، ولا يمنحك إلا دموية حكمته..!

تحرر من صغوطه عليك.. إنسلخ عنه.. عش خارجه.. ارتفع فوقه.. أسم عليه.. أسم وارق حتى تلامس سماوات القرآن.. هناك التمس لك تاريخا لا يبليه الزمن.. ولا يعتقه القدم.. ولا يلتهمه العدم.. هو للروح بهجة لا تنقضي.. وللقلب عيد لا يحول ولا يزول..!

***

إيحاءات داغستانية :

على بوابة " داغستان "

(١)

إفـــتحي ياســـيدة القفقـــاس..يا أليفة الدجى ورفيقة الليالي الطوال.. إفتحي يا معصوبة العينين.. يا مكبلة الروح.. يا مقيدة الفكر..!

يـــا لعينـــيك الظامئتين إلى ضياء الفجر ما أشد حلكة ظلامهما.. ويا لروحك المتطلعة إلى الانعتاق ما أثقل ما ترسف فيه من قيود.. ويا لفكرك الوثاب ما أقسى ما يعاني من الأباطيل..!

افتحي.. من مسافات الشوق البعيدة أتيناك.. من آفاق الحنين القرآني قدمـــنا إلـــيك.. النور ملأ ارواحنا!.. والمحبة ملأ قلوبنا.. ونداء الإيمان ملأ أصواتنا..

افتحي.. هذه سواعدنا توالي الطرق على بوابتك.. وأكفنا تدق بقوة فوق جدران ليلك..!

افتحي.. فعلى بوابتك – لو تعلمين – قرآن وإيمان وفتيان شجعان، لو وقف هؤلاء الثلاثة على سور الصين لجعلوه دكا..!

(٢)

افتحي يا درة القفقاس.. يا جوهرة التاريخ الدفينة في ذاكرة الإيمان.. لا تـــرتابي.. ما جئنا لنرزأك بمال أو ولد.. ما أتينا لنأخذ بل لنعطى.. نحن الري لظمأ قلبك، والقوت لمجاعات روحك.. ونحن الفداء "لكلمة الإيمان" إذا تحركت بها شفتاك.. قوليها أم ترى أنك نسيتها..؟!

إكســـرى ما وضع على فمك من أقفال.. اهتفي بها ملأ فمك.. فلو هتفت بها عادت أرضك ربيعا، وسماؤك عيونا منهلة بالبشر والنور والفرح الإلهـــى، ليغســـل كل ما عانت منه روحك من أوجاع، ويضمد كل ما شكا منه قلبك من جراحات..!

(٣)

مد يدك يا بطل" داغستان".. ضمها إلى أيدينا.. دق معنا الأبواب..

لـــتعانق روحـــك أرواحنا.. لتحفز همتك هممنا.. ولتلهب إرادتك الجـــبارة إراداتـــنا.. إنـــنا نسمع صوتك القوى يتردد صداه في فضاءات أرواحـــنا.. إنه يحدونا في مسيرتنا الإيمانية.. يا شيخنا الجليل.. نادها.. قل لها من نحن وماذا نريد..؟

هـــا أنـــت ذا تخاطبها.. إننا نسمعك تقول: أنا الشيخ شامل أناديك فاستمعى إلى.. افتحي لهم كل الأبواب.. إننى أباركهم من وراء الغيب.. إنهـــم فتية الإيمان الذى انشق عنهم كهف نور.. على عين القدر صنعوا.. وفي كـــنفه نشأوا.. ضمائرهم تشع نورا.. أرواحهم تتألق صفاء ونقاء..

أرضـــهم سماء.. وسماؤهم قرآن.. وليلهم مذاب ضراعة ودعاء.. ونهارهم جد وعلم وعمل ضميهم إلى أحضانك فهم نِعم الأبناء لنعم الأمهات..!

(٤)

أنـــتم أيهـــا الغـــرباء الحاملون غربتكم فوق كواهلكم.. اغتربوا ففي غربـــتكم ســـر قوتكم.. تفردوا.. توحدوا.. فتفردكم سؤال ملح يوخز أفهام الآخرين.. إنمازوا فتميزكم لغز يحفز العقول لكي تسبر غوره وتفهم ســـره.. أيهـــا الحـــاملون غربة الإسلام إلى أرض "داغستان" طوبى لكم وبشـــراكم قوله ﷺ : (بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء)[10] فطوبى لكم هذه الغربة المحببة.. إنها آية إيمانكم في هذا العصر.. وعلامة الصواب بين أخطاء العالم وخطاياه.. ولكن انتبهوا.. فما لم تكن قلوبكـــم هـــي الـــتي تتكـــلم مـــن خلال شفاهكم فلن تستمع إليكم "داغستان".. وما لم تمبط أرواحكم على أطراف ألسنتكم ساعة تخاطبونها فلـــن تصـــغي إليكم.. لقد أصغت كثيرا حتى ملت، واستمعت لآلاف الأصوات وهي تزف إليها الأمل في نعيم الحياة، ورفاه العيش، ثم خرجت مـــن كـــل هذا الضجيج المصم وهي اكثر هزالا، وأشد جوعا، وأعظم بؤسا.. فكفرت بكل الأصوات إلا صوتا واحدا ما زالت تتوق إلى سماعه ألا وهو صوت الله تعالى.. فكونوا جديرين بحمله إليها وتبليغه إياها..!

(٥)

نعـــلم أنك بكيت فقدان الهوية.. ونعلم أنهم سلبوك إياها.. ونعلم أي

---

١٠ مسلم، كتاب الإيمان ٢٠٨؛ الترمذي، كتاب الإيمان ٢٥٥٣.

عـــذاب مخيف تحملت حين لم تعودي تعرفين من أنت ومن تكونين..؟!
ونعـــلم مـــا قاسيت من الآم الانقسام بين أن تكوني "داغستان" الإيمان والإســـلام وبين ألا تكوني.. ونعلم غزارة الدموع التي سفحتها فوق ليالي الحيرة الطوال.. ونعلم ما اجترحت أحزانك في صحراء روحك من حرقة وعذاب وجوى..!

نعـــلم كل هذا.. ونأسى لكل هذا.. ومن أجله أتينا.. من أجل الهوية السليبة قدمنا.. من أجل أن تكوني "داغستان" الإسلام والإيمان نحن هنا.. ومـــن أجل أن تلتقي هويتك السليبة وتتوحدي مع شطرك المقصى جئنا إلـــيك وحططـــنا رحالنا على بابك، وأقمنا خيام أشواقنا في رحابك.. فأومئ إلينا.. أشيري نحونا.. تجدينا بين يديك.. فلذات مضيئات من كبد الإسلام، وجذوات متوهجات من أقباس الإيمان والقرآن..

يـــا أمـــنا الحبيبة التي عشقتها أرواحنا لا تبعدينا عنك.. خذينا إليك وامنحيـــنا حبك.. وضمي يدك لنجدد معا ما اندرس من معالم الإيمان.. ونعيد ما غاب من آيات الهدى والفرقان، في رحابك وفوق أرضك..!

(٦)

أيـــنما مضيت – في شعاب هذه المدينة – أسمع وقع خطاهم، كيفما أصـــغيت اسمع نبضات قلوبهم.. وإذا ما تنفست أتنفس عطر أرواحهم.. وإذا ما هبت الريح حملت إلى أصداء أصواتهم، وصليل سيوفهم، وصهيل خيولهم..!

أولـــئك الحفـــاة العراة الجائعون الظامئون الذين اتعبوا التاريخ، فظل

يركض وراءهم فلا هم يتوقفون ولا هو يلحق بهم.. إنهم هنا فوق روابي هذه المدينة يرقدون..جائعون حقا ولكنهم كانوا للحق أشد جوعا وأعظم ظمـــأ.. حفـــاة عراة صدقا ولكنهم أبدا لم ينتعلوا أبشار الشعوب [11] ولم يتسربلوا دماء البشر.. أرضيون طينيون ولكن صحبتهم لنبيهم ﷺ جعلت أرضـــيتهم سماء.. وطينيتهم عنصرا نورانيا مشعا وحولت تمرات في كف واحـــد مـــنهم إلى جمرات محرقات فيقذف بها ويقذف بنفسه إلى رحى الحرب لينال الجنة التي اشتاق إليها واشتاقت إليه..!

أتـــدرون مـــاذا كانـــت تمثل هذه التمرات في كف ذلك الصحابي الجليل..؟ هي دنياه.. هي ماله.. هي شهوته ولذته.. هي درهمه وديناره.. فـــلما ألقاهـــا مـــن يده ألقى بكل ذلك وراء ظهره فصار أهلا للشهادة والجنة..!

أيهـــا الـــراقدون فوق روابي هذه المدينة.. يا صحابة رسول الله ﷺ.. أعيرونا قوة أرواحكم.. امنحونا صلابة سواعدكم.. ابتعثوا فينا هممكم.. اقدحـــوا أزندة إراداتنا.. علمونا كيف نقتحم الأهوال ونصارع الخطوب ونهزم المستحيل.. أمدونا بحكمتكم.. أرشدونا.. زهدونا.. لكي نلقي ما بأكفنا من رموز الدنيا إلى هاوية الفناء.. خذوا بأيدينا.. امنحونا بركاتكم لكي نؤدي رسالة الإيمان ونفوز برضى الرحمن..!

داغستان / دربند / في شباط ١٩٩٩

---

١١ البشر: جلد الإنسان ومنها قوله تعالى في النار: (لواحة للبشر) والعبارة كناية عن عدم استعباد الناس وامتهان كرامتهم.

النورسي . . أديبا

بسم الله الرحمن الرحيم

(الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان.) (الرحمن:١-٤)

١- الرحلة إلى منابع الجمال

جئـــت - أيهـــا الصديق العزيز - تطلب قلب "النورسي" بين قلوب الأدباء..؟ حسنا.. أنا أدلك عليه، وآخذ بيدك إليه.. أنظر... إنه هناك.. بعـــيدا.. بعـــيدا.. وراء تخوم العالم.. وفوق حدود الأكوان... سابحا بين عـــوالم المعاني الفائضة من أسماء الله الحسنى... يروح ويغدو متلمسا جمال الوجـــود، وملـــتقطا لآلئ الحسن من فوق جيد الأكوان.. هذا العطش المحترق بعطشه، المتسعر بوجده.. ما ناغى الجمال أحد مثله.. ولا ذاق من رحيقه أحد كما ذاق، ولا شرب كؤوسا مترعة من كوثره كما شرب.. حتى إذا ثمل، وانتشى هوى ساجدا بين يدي الله تعالى سجودا أبديا لم يقم منه حتى توقف نبضه، وأغمضت أصابع الموت أجفان بصره وبصيرته.

و"النورســـي" عقـــل يفكـــر، وروح يستعر، وشوق يلتهب، ورغبة تـــتوجع، وحزن يتفجع.. فأن لم يخلق هذا أدبا فما الذي يخلقه إذن...؟!
وإن لم يصنع هذا أديبا فما الذي يصنعه إذن..؟!

ومـــنذ نعومـــة أظفاره وهو فتى يدرج في شعاب قريته، شعر بأنامل الجمـــال وهي تتحسس مساقط الحياة من سويداء الروح، فإذا قلبه بلبل غـــريد يغرد بألف لسان ولسان، وإذا روحه نشيد تتردد أصداؤه بين قمم الكلام من جميع اللغات.

٢- (بلدة طيبة ورب غفور) (سبأ:١٥)

ومراتع الجمال الأولى لقلبه الفتي كانت قريته "نورس".. إنها بين قرى الأناضـــول كشعاع الروح في ظلمة النفس.. في الإصباح تتلفع بأوشحة شفافة من ضباب لؤلؤي فاغم العطر.. بينما فؤاد الأرض العطش يستقبل زخات مطر بين آونة وأخرى.. وسنابل القمح الذهبية في باكورة الصيف تظـــل تســـتقبل بـــلهفة دفقات حنان من نور الصباح (بلدة طيبة ورب غفور).

و "النورســـي" في هـــذا المهـــرجان الجمالي الذي تتناغم فيه الألوان والصـــور الأصـــوات يغدو عينا لماحة تلم لآلئ الحسن المنتثرة في الحقل والـــوادي والجبل، وعلى الشجر وفوق الزهر، وروحا شدها بكل شيء فيغدو وترا مشدودا مستوفزا يتحرك للهمسة، ويرن للمحة والخطفة.. لا شـــيء عتـــيق في رأي "النورسي" ولو رآه كل يوم، ولو ألفه وسكن معه وســـاكنه السنين الطوال، لأنه يرى في "المألوفات خوارق العادات، وفي المكرورات لمسات الخلق الدائرات المتجددات مع اللمحات واللحظات".

٣- الوجود والعدم

وتصرخ روحه في ظلمة الليل وقد انتابه قلق مريع وأرق وجيع:

يـــا للهول.. هذا الموت الذي يطال كل شيء حي هل من منقذ منه؟ وهذا العدم الذي يطوى كل موجود أما من فكاك عنه ؟

إن قضـــية جديدة بدأت تتشكل ملامحها في ذهنه الفتي، وتستأثر بجل اهـــتمامه، وهي قضية الصراع الرهيب بين البقاء المتشبث العنيد، والفناء المتشـــبث العنـــيد، منذ أن سمع والده وبعض ضيوفه يديرون حوارا بينهم حول الموت والحياة، والوجود والعدم. وفي إحدى الليالي وهو في الفراش حيث يتقلب على إبر محماة من القلق والأرق، يسأل نفسه:

لو خيرت -يا سعيد- بين العدم والوجود حتى في جهنم الحمراء فماذا كنت تختار؟ ويجيب: إني وبلا تردد أختار الوجود حتى في جهنم الحمراء عـــلى العـــدم، ولـــئن أكـــون شيئا ما يحترق خير من أن لا أكون على الإطلاق.

وبعـــد ســـنين من تلكم الليلة المريعة، وبعد تفكير عميق في ظاهرتي الموت والحياة، والوجود والعدم يخلص إلى أنه لا فناء ما دام خالق الوجود موجـــودا، ولا موتا ما دام واهب الحياة حيا، فالفناء في الحقيقة هو عين البقاء، والموت هو عين الحياة.

ويضـــرب لذلك مثلا فيقول: "إن هذه الزهرة الجميلة التي تنظر إليك مبتسمة، لا تلبث إلا قليلا حتى تذبل وتموت، إلا أنها تظل حية في بذرتها الـــتي فيها خارطة حياتها، وفهرس وجودها، وهي حية كذلك في ذاكرة

المشـــاهدين. وفي مخلية الكون، وفي علم الله، وكذلك الإنسان فإنه يموت مـــن جهة إلا أنه إذا مات يرجع حيا في علم الله، ثم يعود الى عالم الخلق والـــتكوين مرة أخرى للحساب والثواب والعقاب" ولعل إلى هذا يشير القرآن الكريم حيث يقول على لسان الكافرين: (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل) (غافر:١١).

٤- المواجيد والأشواق

يـــا وجـــد القلـــوب.. يـــا شوق الأرواح.. يا لهيب الفكر.. تأجج وتوهـــج.. وازدد تأججـــا وتوهجا فقلب بلا وجد.. وروح بلا شوق.. وفكـــر بلا لهب.. أشلاء نفس ميتة ومساكن ظلام، وأعشاش عفونات، فالإيمان ينأى عن مساكنة الظلام، أو العيش بين الأموات.

ولكـــي يدخـــل الـــنفس بدون استئذان، يصوغ "النورسي" المقاصد الإيمانـــية صياغة فنية وأدبية، حتى إذا ما زجت النفس، وخالطت القلب، أضـــاء الـــروح، وتوهج الوجدان، وتألق العقل، واستضاء الفكر، وسمت الحياة وطهرت وعادت كما بدأ الله أول خلقها.

فكـــل شيء –عند النورسي– من ينبوع الجمال والجلال الإلهيين يأتي والـــيهما يعـــود، وإن المحبة أصل الوجود، والجمال جوهر الكون، ومن دونهما فلا كون ولا وجود ولا خلق.

٥- الخلق والفرح الإلهي

ولأن من صفاته تعالى "الخالق" فهو لا بد أن يخلق فهو "خلاق" إلا أنه يحب ثم يخلق، فهو يحب خلقه قبل أن يخلقهم، ويحبهم بعد أن يخلقهم، فكما أن كل صانع يحب صنعته ويفخر بها، ويباهي بها، ويشعر بالزهو بسببها، فكذلك الخالق -ولا مناقشة في المثال- فأنه يحب خلقه، ويفرح بهم، ويباهي بهم، ويسبغ عليهم وده ولطفه ورحمته.

ويعبر "النورسي" عن قدسية هذه المعاني قائلا:

"وله -جل وعلا- ما يشبه المحبة - تليق بذاته سبحانه- بمقدار سعادة مخلوقاته، وبمدى تنعمهم وفرحهم، وله شؤون ربانية مع خلقه يتعذر التعبير عنها، وقصارانا أن نقول: إنها لذة ربانية لائقة بذاته، وعشق رباني غاية في القداسة، وفرح رباني عالي القدسية وسرور للذات الرباني يند عن الفهم والوصف، بحيث إن كلا منها هي أسمى وأرفع وأنزه بما لا يتناهى من درجات العلو والسمو والقداسة مما يظهر في الكائنات، وما نشعر به من العشق والسرور بيننا وبين الموجودات بعضها مع البعض الآخر"[١٢]

ثم يزيد في التوضيح فيقول:

"وهكذا فإن كان إنسان صغير عاجز عن الإيجاد والخلق يغمره السرور إلى حد الاختيال بمجرد صنعه صنعة صغيرة، فكيف بالصانع الجليل خالق هذا الكون الموزون المموسق والذي جعل منه حاكيا عظيما يحكي قصة الخلق والخليقة، ويبث أصداء تسبيحات أهل الأرض السماء، والذي خلق

(١٢) ص ٧٤٤ من الكلمات، مع تصرف بسيط جدا.

رأس الإنسان بعقله وحواسه حاكيا ربانيا آخر يبث موسيقى المشاعر والأحاسيس، في الليل والنهار، وفي اليقظة والمنام، وفي جميع الأوقات، ولا تسكن هذه الموسيقى حتى تسكن فيه الحياة"[١٣]

٦- مرآة التجليات الإلهية

هاأنذا أسمع صوت الوجد الشجي يملأ قلب "النورسي" وأكاد أبصر مرايا فؤاده وهي تتكسر وتتطاير شظايا في الفضاء شوقا الى جمال المعاني، إنه يستقطر دموع الجمال وهو يخب صعدا نحو رؤى جمالية بعيدة المزار، كلما اقترب منها ازدادت بعدا، واشتطت نأيا، إنه ذلك الجمال الخلاق الساري بين الرؤية والرؤى، بين عين الرأس وعين القلب، بين جمال المحسوسات والمبصرات والمسموعات وجمال المجردات من المعاني المتجليات على الأرواح الطاهرات، إنه جمال مصون محاط بسور من نار ونور، لا يطاله إلا المنورون الذين يطفئ نورهم النار، ويرقى وجدهم فوق الجدر والأسوار.

هذا الجمال الذي هام به "النورسي" والذي يشكل جوهر دعوته، وجده معنى عظيما متجسدا وقائما في الذات المحمدي عليه السلام، في جسمانيته وروحانيته، في خلقه وخلقه، إنه كما يصفه "**النورسي**": "مرآة الجمال الإلهي الأقدس، ومجسم أنوار أسمائه الحسنى، وموضع تجلياته، ومصب محبته وعنوان رحمته على الأرض"

---

(١٣) ص ٧٤٥ من الكلمات، مع تصرف بسيط جدا.

ثم يمضـــي فيقول: "فالله تعالى يحب كماله الذاتي. ويحب جمال صفاته، وجمال أسمائه الحسنى محبة لائقة به جل وعلا، ويحب أيضا محاسن مخلوقاته، وصـــنعته، ومصنوعاته، وسلطان الأولياء حبيب رب العالمين، أي: لمحبته لجمالـــه يحـــب أصـــفى المـــرايا وأشدها نقاء العاكسة لهذا الجمال من الموجودات ومن بني الإنسان"[١٤]

٧- محمد ﷺ أديب الإنسانية

فـــأي أديب عظيم كوني الآفاق، إنساني النـــزعة، أممي النظرة، يمكن أن يكـــون مـــن كان قلبه الشريف مهابط أنوار القرآن على مدى ثلاث وعشـــرين ســـنة. ومن كان روحه السامي مضمخ أنداله، وذاته الشريفة صنيع جماله وجلاله، فأصبح بذلك كونا إنسانيا شاسع الأرجاء يقطر من جمـــيع أنحائه ماء الجمال والجلال، وتتساكب من سحائب أنواره بارقات العقل، والتماعات الفهم والحكمة والإدراك الأشمل والمعرفة الأعمق لآلام البشـــرية ولأوجاع قلب الإنسان، وصدق عليه السلام حين قال: (أدبني ربي فأحســـن تأديبي)[١٥] الأمر الذي حمل "برنارد شو" فيلسوف الإنجليز وأديـــبهم الكبير على الإعجاب به حيث يقول عنه: "أعطه أية معضلة من معضـــلات بـــني الإنسان يجد لها حلا قبل أن ينتهي من آخر رشفة من فنجان قهوته".

(١٤) انظر الكلمات ص ٧٤٠-٧٤١ مع شيء بسيط من التصرف الذي لا يخل بالمضمون.

(١٥) المناوي، فيض القدير ١/ ٢٢٤..

و "النورسي" تلميذ القرآن، وتلميذ رسول القرآن، يرى كتاب الله تعالى، وإن كان هو في الأساس كتاب إيمان وتوحيد وتشريع، إلا أنه كذلك كتاب أدب حـــي لا يمـــوت، لأن منـــزل القرآن حي لا يموت، فالذي يأخذ عن القـــرآن يأخذ من حي عن حي، أما من يأخذ عن كتاب غيره فهو يأخذ من ميت عن ميت، "فمن أين تأتي الحياة من فاقد الحياة" كما يقول.

وما من أديب من أدباء العربية المرموقين في الماضي والحاضر إلا وهو متأثر بالقـــرآن بقدر أو بآخر، فهو خزين علوم العربية وكنـــزها الذي لا ينضب، منه تأخذ وإليه تعود فيما يعن لها من إشكالات لغوية أو بيانية أو أدائية.

٨- أدب الإيمان

والحس الشاعري والأدبي المرهف يطفر عفويا من قلم **"النورسي"** وهو يعالج قضايا إيمانية غاية في الأهمية، فعقله المجنح يسابق روحه في استشرافاته عـــلى الأعالي من شؤون الإيمان، فعقله وقلبه عملا معا على إرساء قواعد معرفة إيمانية أراد "النورسي" أن تكون لها الصدارة بين معارف الإيمان.

وأكثر رسائله التي يبدو فيها حسه الأدبي والشاعري واضحا، ويفصح عـــن تلازم أبدي بين عقله وقلبه كتابه الموسوم: "المثنوي العربي النوري" الـــذي استأنس في تأليفه بـــ"المثنوي" لمولانا جلال الدين الرومي، إلا أن الفـــرق بينهما أن مثنوي الرومي كان بالفارسية، أما مثنوي **"النورسي"** فهـــو بالعربـــية، وهو وإن لم يكن شعرا كمثنوي الرومي إلا أن أنفاسه شاعرية أدبية بإجماع "النقاد".

وفي منهجه في تأليفه للمثنوي يقول "النورسي":

إنه سلك سبيلا قل سالكوه في تأليفه، إذ حاول السير مع العقل ولكن تحت نظر القلب، ومع القلب ولكن تحت نظر العقل.

ويقـــول: لو عشت زمن "الرومي" لكتبت "المثنوي" الذي كتبه، ولو عاش هو زماني لاضطر إلى كتابة "رسائل النور" التي كتبتها. وكلامه هذا يــنم عن خزين أدبي عظيم لم يستخدم منه إلا القليل الذي يخدم رسالته الإيمانية التي كرس لها حياته.

وإن كانــت "دولة الأدب" ترحب بقلم "النورسي" كواحد من أبرز أقلامهـــا إلا أن قلمه الأكبر والأعظم كان اكثر انتماء، واشد تعلقا بدولة الإيمـــان رســـالته الأخطـــر في عصره، فاختلاف العصور يوجب كذلك اخـــتلافات في أنماط التفكير، واختلافات في أساليب تناول الإشكالات الفكـــرية والإيمانية التي يطرحها عصر دون عصر، فعصر "النورسي" هذا العصـــر الاكتساحي لكل ما توارثته البشرية من قيم دينية ومثل أخلاقية وفكـــرية عصر الشك حتى في بديهيات العقل، استدعى أنماطا من التفكير وأساليب من المعالجة لم يكن "الرومي" مضطرا إليها.

والامـــتزاج والتـــنافذ بين عقله المجنح وروحه المحلق، هو ميزة "أدب الإيمان" الذي كان "النورسي" واحدا من رواده الكبار في هذا العصر.

٩- "النورسي" والفكر الأوروبي

ولـــيس صعبا على "النورسي" ذي الذكاء الخارق والعقل الاستيعابي الشـــمولي أن يحـــيط بكلـــيات الفكر الأوروبي الحديث، ويلم بفلسفاته

وعلومــه، ويطلع على إيجابياته وسلبياته، ويقف على تأثيراته في "الإنسان المعاصــر" وفي تكوين أفكاره الجديدة، وتغيير نظرته إلى الوجود و الحياة، وأخــيرا كيف دفع هذا الفكر بمعطياته المادية بشرية القرن العشرين، إلى هــذا الموقف البارد واللامبالي من الدين والإيمان عند البعض، وإلى العداء الصريح عند البعض الآخر .

و " النورسي " بنــزعته الموسوعية، ونظرته الشمولية التي كانت طابع حــياته الفكــرية والروحية منذ تفتح وعيه على الحياة، شغوف بالقراءة والدرس والتفحص والتأمل، يقرأ في علم النفس، ويدرس الفلسفة، ويهتم بفســلجة الإنسان التشريحية، ويلم إلمام المتخصصين بالرياضيات والفيزياء والكيمــياء، وبعلمي الحيوان والنبات، ويتأمل في العلوم الفلكية، ويرصد ويطلــع على أحدث نتاجات الفكر الأوربي المترجمة إلى التركية من قبل بعــض المرموقين من المثقفين الأتراك ويرصد النجوم من مرصد فلكي في مدينة "وان" كان قد استقدمه من "أوربا" أحد ولاة المدينة .

وبعــد ذلك كله يستخدم ما أفاده من هذه العلوم والمعارف في خدمة (الإيمان) القضية الكبرى التي كرس لها حياته، وأوقف عليها وجوده .

ولما كانت الموجودات في هذه الدنيا- كما ينظر إليها **النورسي**- "هي أمثلة مصغرة لوجود أخروي كبير . وأطياف خيال لحقيقة أخروية أعظم وأشــباحا باهــتة لــرؤى فكر أخروي غاية في السعة والشمول والدقة والعظمــة.. لــذا فإن كل موجود" هنا في عالمنا الصغير هذا موصول بما يــناظره هــناك، وكل معنى هنا مرتبط بمعنى أسمى وأعظم هناك، فالدنيا مرتــبطة بالآخــرة، وحب البقاء والكمال عند الإنسان هنا يؤكد معنى

الخلــود والبقاء والكمال هناك، و " الصور " الذي ينفخ فيه الربيع ليبعث مـــن الأجداث مئات الألوف من أنواع النبات والحيوان والحشرات كل ســنة، إيماءة واضحة لصور أكبر، وحشر أعظم يوم القيامة . والحافظة في مخ الإنسان وهي بحجم حبة خردل، والتي تحتفظ بشريط مسجل لماضي الإنســـان وما وقع له من أحداث، هي مثال مصغر لحافظة أخروية أوسع وأكبر تحفظ سجلا كاملا لتاريخ حياة الإنسان على هذه الأرض، ليعرض عليه في الآخرة عند مناقشته الحساب.

١٠- فكر "المعاناة"

وكل كلمة قالها أو خطها أو أملاها على تلامذته إنما هي حقيقة بعيدة المــنال، خاض إليها الأهوال، وقطع الفيافي والقفار، وعبر إليها بحورا من حجب النفس والوجدان، وقاسى من أجل اقتناصها أشد المقاساة، قبل أن تتجلى في سماء ذهنه بجلوة مشرقة مبرأة من ظلال الشك وسحائب الوهم كالشمس الطالعة في ضحى يوم صائف .

وليس "النورسي" صاحب قلم بارد يغمسه في مداد فكر بارد، ليكتب مـــا يشاء وقتما يشاء، إنما هو المعاناة الجريحة المدماة التي تنــزف فكرا فيه حــرارة الروح، ودفء القلب، وإنما هو السحابة المثقلة بماء الحياة والتي لا يــدري أحـــد متى تبرق وترعد وتغيث، وإن شئت فاستمع إليه يقول في وصف حاله عندما كتب "مثنويه"!

(.. والكــلمات إنما تولدت إثر جدال هائل، ونقاش عظيم مع الفكر، وســط إعصار تتصارع فيه الأنوار مع النيران، فإحس برأسي يتدحرج في

آن واحد من الأوج إلى الحضيض، ثم يرتفع من الحضيض إلى الأوج، ومن الـثرى إلى الـثريا ؛ إذ سلكت طريقا غير مسلوك، في برزخ بين العقل والقلـب، ودار عقلي من دهشة السقوط والصعود فكلما صادفت نورا نصـبت عليه علامة لأتذكره بها، وكثيرا ما أضع كلمة على ما لا يمكن التعـبير عنه للإخطار والتذكير، لا للدلالة، فكثيرا ما نصبت كلمة واحدة على نور عظيم)

و "النورسـي" نفس شاعرة، وروح لهيف، وقلب مشتاق، ووجدان رقيق مرهف، وبصيرة نفاذة مذواق، وبصر لماح رصاد لا تفوته بارقة من بـوارق الجمال الكوني، ولا تفلت منه سانحة من سوانحه، وطائر عجيب يلقـط لآلئ الحسن من فوق جيد الوجود، وظامئ عطش يرتشف زلال الجمال من رضاب ثغور الأكوان.. ومع كونه يملك كل صفات "الشاعر العظـيم" إلا أنه لم يقل شعرا، أعني أنه لم ينظم شعرا كما ينظم الشعراء، ولكـن مـا قاله في المثنوي رغم أنه يحمل ميزات "النثر" ومقوماته شكلا وقالبا إلا أنه شاعري الروح والنفس، وجداني الانسياب، رشيق في صوره وأخيلته مع عمق أفكاره ودقيق معانيه .

والشعر – بعد هذا أو ذاك – قد يضطر للمبالغة في كثير من الأحيان حـتى يحفز ويثير ويحرك، وهو من أجل تصوير معنى من المعاني، وتجسيم قيمة من قيم الجمال والحق قد يجنح إلى ما وراء المعقول، ويهبط في خياله على "اللامعقول" من الأخيلة والصور .

وكـلام "النورسي" في مثنويه – رغم روحه الشاعرية – منـزه عن هـذا كله، فهو يتفاعل مع صور "الحقيقة" ويتحاور مع آثارها، ويناقش

ظلالها على صفحة الوجود، وهو لا يفعل أكثر مما يفعله الرسام البارع في الصور الباهتة وقد حالت خطوطها، وانطمست معالمها، واختلطت ألوانها، فيمر عليها بفرشاته المطواع ليبعث الدفء والحرارة فيما برد من ألوانها، ويجسم ما غام وشحب من معالمها، ويمنحها أبعادها التشكيلية، ويهب الرائي عمق الرؤية، ونفاذ النظر إلى دواخلها.

ولو أردنا أن نصف كتاب "المثنوي العربي النوري" لقلنا:

(إنه ليس سوى لوحة فنية رائعة الجمال، رسمها فكر ملتهب، وكونها قلب دام، وسكب عليها الظل والضياء روح حزين مغترب، فلا عجب إن شدت – هذه اللوحة – إليها الانتباه، وقيدت بها الأفكار، وحبست عليها الأرواح، وأوقفت لها القلوب.

وهي بموسيقية ألوانها، وتناغم ظلالها وأضوائها، وإشراق آفاقها، وامتداد أمدائها، وعمق أبعادها، وجمال تعبيرها، تأسر الألباب، وتشده النفوس، وتهز رواكد الأشواق في الإنسان إلى "ما وراء" هذا العالم الضيق المحدود، وإلى ما وراء هذه الحياة التي مهما طالت فهي دون ما يرجوه من خلود، ودون ما يراوده من آمال في البقاء والأبد)[16].

١١ – البلبل

نعرض هنا إحدى روائع النورسي " الأدبية التي ترقى به إلى مصاف الأدباء الإسلاميين الكبار، فهو في هذه القطعة يرتفع إلى القمة التي ارتفع

---

(١٦) انظر كتاب "مختارات من المثنوي العربي النوري" اختيار وتقديم كاتب هذا البحث في الصفحات ١٢– ١٦ مطبعة الزهراء الحديثة / ١٤٠٤هـ – ١٩٨٣ م / الموصل – العراق.

إليها شاعر الصوفية الأكبر " مولانا جلال الدين الرومي". أيها البلبل الغريد.. يا ملك اللحن والغناء.. يا صناجة الطير وقيثارة الغاب.. تغن يا عاشق الأزهار.. واسكب حنان قلبك وأشواق روحك في أذن الورود وأسماع الأزاهير.. ففي صوتك الشجي ظمأ الطير كلها إلى "الزهرة"، ملكة النبات، وأميرة الحقول والبساتين والغابات لتبثها – باسم كل ذي جناحين – رسائل الود والعشق والمحبة.. وتعلن لها – بلسان الطيور – الشكر والامتنان لمملكة النبات على ما تهديه من أرزاق وأقوات لضيوف الرحمن على هذه الأرض.

تنتقل من فنن إلى فنن، وتطير من زهرة إلى أخرى جذلان منتشيا، وتنظر بعين الشكر إلى هذه الأرزاق المسوقة إلى أبناء جنسك، وهذه الأقوات المهداة من خزائن الرحمة الإلهية إلى الأفواه الجائعة، والمعدات الخاوية، فيستخفك الفرح، ويهزك الكرم الإلهي العميم، فتصفق بجناحيك الصغيرين، وتطلق باسم كل طير وحيوان أصوات الترحيب والتهليل، وترسل ألحان الحمد والشكر والثناء.. وتغمر زهرتك بفيض حبك، ومذاب عشقك، ويتساكب وجدك كأنداء السحر فوق وجه هو ألطف الوجوه وأرقها.. وتنساب قبلات فؤادك على ثغر هو أشهى الثغور وأعذبها.. وتدلف إلى محاريب الطهر والنقاء حيث العذارى من أزاهير الروض وقد غدون شفاها مسبحة، وقلوبا وهي ذاكرة، فتلملم من فوق الشفاه تسابيحهن وتجمع من بين الضلوع ذكرهن، ثم تمضي بصوتك العذب الحنون تسبح عن كل زهرة، وتذكر بلسان كل وردة على عتبة مقسم الأرزاق، ومالك الملك.. وعند باب الرحمن الرحيم ذي الجلال والإكرام .

هـــذا بعـــض ما نستشفه من ألحانك - أيها البلبل العزيز- وبعض ما نحدسه من تغاريدك.. وربما أنت تقول أشياء أخرى لا نرقى إلى فهمها، وتودع أذن الكون رسائل لا ندرك كنهها . ولا نعلم سرها.. وربما أنت نفسك لا تفهم مقاصد ما تؤديه، ولا تدرك مغازي ما تفعله، ولكنك - عـــلى رغـــم ذلـــك - ســـعيد بعملك، مبتهج بواجبك.. أما الملائكة والروحانيون المبثوثون في أرجاء الكون، فأنهم أقدر منا ومنك على فهم ما تقـــول، وعـــلى إدراك ما تعني، وهم بدورهم يرفعون رسائلك وينقلون أحاديثك إلى أبواب الحضرة الإلهية.

فجهلـــك - يـــا بلبـــلي العزيز - إن كنت جاهلا حقا بهذه الغايات والمقاصد لا يعني عدم وجودها، فأنت كالساعة تشير إلى الزمن، وتعلمنا الوقت، ولكنها لا تعلم هي ما تفعل..

فاعتصـــر لـــذا ذات عملك من جمال الأزاهير، وتناول أذواق قلبك وروحـــك من أحاديث الورود، وتمايلهن على الغصون، وابثث ما شئت مـــن أحزان بين أيديهن، فنغماتك مهما بدت حزينة شجية فهي ليست شكاوى وآلاما بقدر ما هي شكر وثناء وحمد لعطايا الرحمن وآلائه.

* * *

ولا يذهبن بك الوهم أيها الإنسان - فتحسب أن "البلابل"، هي لعالم الطـــيور وحدها، وأن أنواعا أخرى من مخلوقات الله لا تعرف من يسبح باسمهـــا، ويـــرفع آيات شكرها وحمدها لبارئها، فلكل صنف ونوع بلبله الخاص به، وحتى العناكب والنمل والنحل لها بلابلها التي تلحن تسبيحها، وتغـــرد أشـــواقها ومواجيدها، وهي بالوقت نفسه لها هداياها التي تحصل

عليها من خلال عملها، من متع تغريها بالمزيد من الجد في أداء واجبها في خدمــة الصــنعة الربانــية، مثلها في ذلك مثل القبطان الذي يقود سفينة سلطانية في عرض البحار، فأنه زيادة على المرتب الذي يتقاضاه من خزانة الدولة فهو يستمتع ويلتذ بما يشاهد من مناظر جمالية تعرض له أثناء إبحاره وتطوافه بين الضفاف والشطئان.

* * *

هكــذا فلكــل نوع من أنواع الكائنات بلبله الذي يلتقط من مجاميع الــنوع الــذي يمثله ألطف حسياته، وأرق مشاعره، وأعذب مواجيده ثم يغرد بها ويشدو، ويسجع وينشد، فما من أذن في هذا العالم، وما من سمع في هــذا الكون إلا ويلتقط ما يناسبه ويلذه من هذه الألحان والتغاريد من أصــغر المخلوقــات إلى أكبرها، وقسم من هذه " البلابل " ليلية التغريد، فهــي تنشــد قصائدها في دواوين الليل الساجي، فتحرك بهذا النشيد في هــدوات اللــيالي مكنونات القلوب، ومشاعر الأرواح، تماما كما يفعل الأقطــاب والمرشــدون في تحــريك الذاكرين، وتنشيط المتكاسلين من الدراويــش والمــريدين في حلقات الذكر وعندئذ يبدأ الجميع- كل بلغته الخاصــة على قدر حاله - بذكر الله سبحانه وتعالى والتوجه إليه بالشكر والمحبة والتعظيم والخشوع .

* * *

إذن فكــل نوع من أنواع الموجودات - وحتى الأفلاك والنجوم - لها رئيسها الذي يقود حلقة الذكر فيها، وبلبلها الذي يلحن في عتمة الفضاء الوسيع أنوارها، ويغرد أضواءها..

ولكن، أ تدرون من هو بلبل البشرية وعندليبها، وصاحب مواجيدها و أشواقها، وحامل آلامها وآمالها، والهاتف بصوت عقلها وقلبها..؟!

أنه أفضل بلابل الكون وأشرفها.. وأعذبها صوتا وأعلاها نداء وأرقها مشـــاعر وألطفهـــا حسا.. وهو المع بلابل البشرية من الأنبياء والمرسلين نـــورا، وأتمهم ذكرا، وأعظمهم شكرا، وأكملهم ماهية، وأجملهم وأبهاهم صـــورة.. ذلـــك الذي كل الكون بستانه.. وكل الوجود زهرته.. وكل الموجـــودات أغصانه، والأرض والسماوات روضه.. باعث الأشواق إلى الله.. وحـــادي القلوب والأرواح إلى بارئها وكل البشرية أوراده.. المغرد بالقرآن، والصداح بآيات الله، محمد بن عبد الله ﷺ(١٧)

١٢- في مراعي " بارلا "

يقول "النورسي":

بيـــنما كنـــت على قمة جبل في "بارلا " أيام منفاي، أسرح النظر في أشـــجار الصنوبر والقطران والعرعر، التي تغطي الجهات، وأتأمل في هيبة أوضاعها وروعة أشكالها وصورها، إذ هب نسيم رقيق حول ذلك الوضع المهيب الرائع إلى أوضاع تسبيحات وذكر جذابة واهتزازات نشوة شوق وتهلـــيل، وإذا بذلك المشهد البهيج السار يتفطر عبرا أمام النظر، وينفث الحكمة في السمع، وفجأة خطرت ببالي الفقرة الآتية بالكردية لـ (أحمد الجزري) وهي:

---

(١٧) : انظـر الصـفحات ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ مـن كتابي (رجل الإيمان في محنة الكفر والطغيان، أنوار نشريات، إستانبول، تركيا.

(لقـــد أتـــى الجمــــيع مسرعين من كل صوب لمشاهدة حسنك إلهم مبهورون بغنج جمالك ودل سلطانك)

ويمضي "النورسي" فيقول:

وتعبيرا عن معاني العبرة يبكي قلبي على هذه الصورة:

يارب.. إن كل حي يتطلع من كل مكان، فينظرون معا إلى حسنك، ويتأملون في روائع الأرض التي هي معرض صنعك.

فهـــم كالدعـــاة الأدلاء، يـــنادون من كل مكان، من الأرض، ومن السماوات العلى إلى جمالك

فـــترقص تلك الأشجار، الأدلاء الدعاة جذلة من بهجة جمال نقوشك في الوجـــود. فتصدر أنغاما شدية وأصداء ندية من نشوة رؤيتهم لكمال صنعتك.

فكان حلاوة أصدائها، تزيد نشوتها، وهزها طربا، فتزداد تغنجا ودلا ودلالا.

ولأجـــل هـــذا هبت هذه الأشجار للرقص الجميل منتشية منجذبة. يســـتلهم كـــل حي صلاته الخاصة، وتسبيحاته المخصوصة من آثار هذه الـــرحمة الألهية وبعد التزود بالدرس البليغ، تنتصب كل شجرة قائمة فوق صخرة شماء، فاتحة أيديها متطلعة إلى العرش.

لقد تسربلت كل شجرة بسربال العبودية ، ومدت مئات من الأيدي ضارعة أمام عتبة الحضرة الألهية كأنها (شهباز قلندر) [١٨] .

---

(١٨) كان خادما لدى الشيخ الكيلاني، وتربى على يديه، حتى ترقى في مراتب الولاية – المؤلف.

وتميز أغصانها الرقيقة كأنها الظفائر الفاتنة لـ (شهناز الجميلة)[١٩] مثيرة في المشاهد أشواقا لطيفة وأذواقا سامية.

لكأن هذا الجمال يهز طبقات العشق، بل يمس أعمق الأوتار و أشدها حساسية أمام هذا المنظر المعبر يرد على الفكر ما يذكره بأنين حزين، وبكاء مرير، ينبعثان من أعمق الأعماق، المكلوم بألم الزوال الذي يصيب الأحبة المجازية. إنه يسمع أنغام الفراق والألم الشجية على رؤوس أشهاد العاشقين المفارقين أحبتهم، كما فارق (السلطان محمود) محبوبه.

وكأن هذه الأشجار بنغماتها الرقيقة الحزينة تؤدي مهمة إسماع أصداء الخلود لأولئك الأموات الذين انقطعوا عن محاورات الدنيا وأصدائها.

أما الروح فقد تعلمت من هذه المشاهد:

إن الأشياء تتوجه إلى تجليات أسماء الصانع الجليل بالتسبيح والتهليل، فهي أصوات وأصداء تضرعاتها وتوسلاتها.

أما القلب فأنه يقرأ من النظم الرفيع لهذا الإعجاز، سر التوحيد في هذه الأشجار كأنها آيات مجسمات.

أي: إن في خلق كل منها من خوارق النظام وإبداع الصنعة، وإعجاز الحكمة، ما لو إتحدت أسباب الكون كلها وأصبحت فاعلة مختارة لعجزت عن تقليدها.

أما النفس، فكلما شاهدت هذا الوضع للأشجار، رأت كأن الوجود يتدحرج في دوامات الزوال والفراق، فتحرت عن ذوق باق، فتلقت هذا

---

(١٩) حسناء شهيرة بجمالها وجمال شعرها وظفائرها – المؤلف.

المعنى: (إنك ستجدين البقاء بترك عبادة الدنيا).

أمـــا العقـــل فقد وجد انتظام الخلقة، ونقش الحكمة، وخزائن أسرار عظـــيمة في هذه الأصوات اللطيفة المنبعثة من الأشجار والحيوانات معا، ومـــن أنـــداء الشجيرات والنسائم، وسيفهم أن كل شئ يسبح للصانع الجليل بجهات شتى.

أما هوى النفس فأنه يلتذ ويستمتع بحفيف الأشجار، وهبوب النسائم، ويـــنال ذوقا رفيعا بنسيمها (أي النفس) الأذواق المجازية كلها، حتى إنها تـــريد أن تمـــوت و تفنى في ذلك الذوق الحقيقي، واللذة الحقيقية بتركها الأذواق المجازية التي هي جوهر حياتها.

أمـــا الخـــيال فأنه يرى كأن الملائكة الموكلين بهذه الأشجار قد اختاروا جذوعهـــا سكنا لهم وأغصانها أردية لهم. وقصباتها هواتف إشراق ترسلها أجوافهـــا أنـــين نايات شجية، وكأن السلطان السرمدي قد ألبسهم هذه الأجســـاد في اســـتعراض مهيب على إيقاع حزين من حفيف الشجر ومما ترســـله الـــنايات من شجي الألحان، فتظهر تلك الأشجار أوضاع الشكر والامتـــنان لـــــه بشعور تام، لا أجسادا ميتة فاقدة للشعور فتلك النايات الســـاحرة الأنغـــام الصـــافية الصوت، اللطيفة الأصداء، كأنها منبعثة من موسيقى سماوية علوية، فلا يسمع الفكر منها شكاوى آلام الفراق والزوال، كمـــا يسمعها كل العشاق، وفي مقدمتهم (مولانا جلال الدين الرومي) بل يسمع أنواع الشكر للمنعم الرحمن، وأنواع الحمد تقدم للحي القيوم..)[٢٠]

(٢٠) : الكلمات ، الصفحات ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥.

١٣ – الهاوية والسقوط

الانحـــلال الذي دب في روح الأمة العثمانية، و عاث فسادا في عقلها آخـــر أيام حياتها قد وأد ذاكرتها الإيمانية، ومسح مرآة وجدانها من كثير مـــن صور الأمجاد التي حفل بها تاريخها الإيماني، بينما توقف زمنها العتيد صـــامتا حزينا في انتظار عودة الذاكرة الموؤدة إلى سابق عهدها، غير أن معـــاول الهدم التي كانت تهدم في كيانها منذ أجيال بصمت كتوم كادت تجهـــز عـــلى البقية الباقية من هذه الذاكرة، وأدى ذلك إلى زوال التأثير الإيمـــاني على مجمل حياة الأمة الأدبية و الفكرية مما دفع بحياتها الثقافية إلى تـــيه مـــن اليباب والخواء، والرأس الذي كان يوما ما يناطح سماء العظمة الإنســـانية بدأ يتطامن ويطاطئ حتى لامس غبار الأقدام، وشحنة العظمة الـــتي كان توهجها يضئ الخافقين عادت رمادا، ومن ماضيها السحيق ما قبل الإيمان إنبثقت أفكار تريد إعادة عقارب الساعة إلى الوراء والعودة بها إلى وثنيات ما قبل إسلامها.

١٤ – النجم الهادي

وعـــند مـــا أقفرت سماء تركيا من أي نجم أدبي هاد، يذكرها بإيمانها، ويعـــيد إلى قلـــبها ما سلب من نوره، وإلى عقلها ما سلب من رصانته، ســـطع نجم "النورسي" فجأة، وأضاء الآفاق، وأشعل قناديل الآمال، وأنار طـــريق الخلاص، فحمل روحه العظيم الآم عصر كامل من الانكسارات، ناذرا قلمه من أجل الخلاص الروحي الذي لا خلاص للأمة مما تردت فيه مـــن خـــذلان سواه، فبدأ ذهنه الحر الأصيل يتصاعد كاللهب بروعة إلى

آفـــاق عالـــية مـــن أدب الكلمة المذكرة بجذور الأمة الإيمانية، والساعية لانتشالها من هاوية الانسحاق الشائن الذي دفع بها خارج تاريخها المؤثل.

وكان لابد لهذا التوجه الأدبي **النورسي** الجديد أن يجافي التوجه الأدبي الغـــربي الذي صار لـــه مكان الصدارة في أقلام الأدباء والمفكرين الأتراك الجـــدد، والذي يعود بجذوره الأولى الموغلة في القدم إلى كل من (أثينا) و (رومـــا) الوثنيـــتين، وهو أدب - كما يقول **النورسي** أسطوري ملحمي روائي تمردي استعلائي إغتصابي، له رأي في الكون والإنسان والحياة على طرفي نقيض مع أدب الإيمان.

وعـــلى الـــرغم من أن الإنسان اليوم يكاد ينسى أنه كان في يوم من الأيام - وعبر التطور التاريخي من مرحلة إلى أخرى - يخرج إلى البراري ليصطاد فرائسه، ويغتصبها اغتصابا من يد الطبيعة ليأكل ويحفظ حياته من الهـــلاك، ألا أن "الغرب" لا ينفك يذكر اليوم بتلك الحقبة المتوحشة من تـــاريخ الإنسان ويعود ليربي في الإنسان ذلك الشعور الحيواني المتوحش، ويغـــريه باغتصاب اللقمة من أفواه الجائعين وسرقة ما تحتويه أرضهم من كنوز كما يقول "النورسي".

ثم يقول: ومع ذلك (لا ينبغي أن ننكر أن في المدينة محاسن كثيرة إلا أنهـــا ليســـت من صنع هذا العصر، بل هي نتاج العالم وملك الجميع، إذ نشأت بتلاحق الأفكار وتلاقحها). [٢١]

---

(٢١) الكلمات ص٨٥٨.

١٥- الأساليب البيانية عند "النورسي"

والنورسي يمتلك قدرة فذة على استحداث أساليب متنوعة في الكتابة بتـــنوع الموضــوعات التي يتناولها من حيث الأهمية والعمق، فهو ذو قلم مطــواع يمـــتاح من خصوبة بيانية متعددة الجوانب والصور والأشكال، فأسلوبه بشكل عام يتراوح بين (السهل الممتنع) والقوي الصعب.

والغامض بعض الغموض، والغامض شديد الغموض، وأساليبه جميعها أســـاليب تحفيزية تحريكية تنشيطية للأذهان والأرواح، وذلك لأن أفكاره بالأســـاس ليست تقليدية تلقينية نمطية، بل هي استكشافية اختراعية تحتاج من القارئ إلى نوع من أنواع السياحات الفكرية، والكدود الذهنية شأن المستكشفين والمخترعين الرواد .

وبهـــذا الخصوص يقول الأستاذ محمد عبد الله الحسو في مخطوطه عن الأسلوب الأدبي في رسائل النور الكلام الأدبي:

"الأستاذ سعيد النورسي شخصية عظيمة ذات جوانب متعددة، وآفاق واســعة، وأبعاد مختلفة، وأساليب البيان عنده متعددة، فقد تجد الأسلوب العــلمي الدقيق بجانب الأسلوب الأدبي الرقيق الرشيق، وتجد في مؤلفاته القيمة الأسلوب الواضح البسيط السهل الجميل، كما تجد في موضوعات أخرى الأسلوب الغامض الذي يحتاج إلى تفكير وتأمل وكد الذهن لمعرفة ما يقصده الكاتب.

والغمــوض عـــند الأســتاذ النورسي يتفاوت بين الغموض البسيط والغمـــوض الشديد، وفي جميع أنماط أساليبه يحس القارئ بجذب واشتداد

إلى مـــا يقولــه المؤلف، ويحس بجمال وجلال وصدق وإخلاص وحماسة وإيمـــان عميق من المؤلف بما يقوله ويقدمه من أفكار حول قضية "الحقائق الإيمانـــية" الـــتي تدور "رسائل النور" العظيمة عليها، وحول الموضوعات الأخرى المختلفة".

جاء في " المثنوي العربي النوري"[٢٢]:

(اعلم) أيها الناظر! إني اسمع من الناس شكاية عن الغموض في آثاري فاســـتمع مـــني ولا تعجـــل لعتابي لأجل الإشكالات، إذ مخاطبي نفسي الدساسة، وهي تفهم بسرعة أجوبة أسئلتها المخطئة ولو بالرمز.[٢٣]

لا تطلب في آثاري انتظاما وانسجاما ووضوحا لأنها (أي تلك الآثار) تقيد وتلخص مشاهداتي في تحولات غريبة وتجربيات نفسية مختلفة مع أمور أخرى...".

ثم قال رحمه الله:

"لا تحسبن أن ما أكتبه شيء مضغته الأفكار والعقول، كلا! بل فيض أفـــيض على روح مجروح وقلب مقروح، بالاستمداد من القرآن الحكيم، ولا تظـــنه أيضـــا ســـيالا تذوقه القلوب وهو يزول...كلا بل أنوار عن حقائق ثابتة انعكست على عقل عليل وقلب مريض...إن ما يصادفك في المسائل من صورة البرهان والاستدلال ليس برهانا حتى يقال فيه نظرا! بل

---

٢٢ ص٣١٢

(٢٣) لعلـــه يقصـــد انه يوجه كلامه إلى نفسه وهى تفهم مثل هذا الأسلوب ولو بالرمز، فكأنه حديث مـــع النفس، أو ربما يقصد أن الغموض ناشئ من أنه يتحدث عن تجارب روحية وأحوال نفسية عاليـــة فـــى العمـــق، فـــالكلام ليس كلاما اعتياديا بل كلام قلب يحيا فى أمواج من الأحاسيس والإشعاعات، وبحر من الأفكار والتصورات والمعاني المختلفة القوية...!

مبادئ حدسية قيدت وعقدت واستحفظت بأنوار اليقين المفاضة من القرآن الكريم".

فهذا الرجل الملهم له أحواله وتجاربه الروحية وأحاسيسه، وله أيضا صراعاته النفسية، فهو في بحر مواج هدار وقد يأتي بآيات ساطعة كالشمس وقد يغطي الغموض-أحيانا- بعض جوانب الشمس - شمس الإيحاءات والأحاسيس الباطنية العقلية والروحية والوجدانية

"إن قمة الروعة في الأسلوب الأدبي تتمثل في أخصب وأعمق كتب النورسي، وهو "المثنوي العربي النوري" وحقا إن هذا الكتاب تحفة أدبية ودينية رائعة من روائع عبقرية "النورسي" وإن فيه من الصور البيانية والإبداعات الفنية، والذوق الأدبي، وروائع التشبيه والتمثيل والخيال والشاعرية وفنون الاستعارة والكناية والرموز والتلويحات ومشارق نور البلاغة والبيان وجزالة الألفاظ وعمق الفكر وشموخ المقاصد والأهداف... أقول: إن في هذا الكتاب من هذه الأشياء ما يجعله من القمم الأدبية وعلى مستوى واحد من كتاب "المثنوي" لجلال الدين الرومي رحمه الله، وربما رجح عليه من بعض الجوانب". اهـ

* * *

ويمضي الأستاذ الحسو في كلامه مستشهدا بالدكتور "محسن عبد الحميد" حيث يقول في مقدمة كتاب "الآية الكبرى":

"إن الأستاذ "النورسي" وضح مذهبية الإسلام الشاملة في الكون والحياة والإنسان بمنطق صارم وشاعرية فذة وقلم سيال"[٢٤]

ثم قال: "ويتقدم "النورسي" في هدوء ذكي ليأخذ بيد طالب الحقيقة في جولة رائعة... كل ذلك بأسلوب شاعري خصب، ومعرفة تامة بما كان يجري في عصره من تطور في العلوم... ومن خيال خصب ولفتات منطقية بارعة، وألق قلبي يقظ وسريان عجيب في باطن الوجود بل نفوذ إلى أعماق ذلك الباطن"[٢٥]

ونستطيع أن نستنتج من أقوال الدكتور محسن عبد الحميد أنه يعتبره كتابا أدبيا، أو كتابا دينيا بأسلوب أدبي، وشاعرية فذة وقلم سيال، وخيال خصب.

ويمضي الحسو فيقول: "ومن خصائص الأسلوب الأدبي عند "النورسي" أنه اعتمد كثيرا على "ضرب الأمثال" فأجاد وأبدع وأغنى "رسائل النور" حتى يمكننا أن نقول: إن "ضرب الأمثال" هو الطابع المميز لرسائل النور... ولعل النص الآتي الذي نقتبسه من كلام الأستاذ النورسي يغني عن أي تعليق آخر، فاستمع إلى ما يقوله النورسي:

"انك يا أخي تسأل: لماذا نجد تأثيرا غير اعتيادي فيما كتبته في "الكلمات" المستقاة من فيض القرآن الكريم، قلما نجده في كتابات العارفين والمفسرين. فما يفعله سطر واحد منها من التأثير يعادل تأثير صحيفة كاملة من غيرها، وما تحمله صحيفة واحدة من قوة التأثير يعادل

---

(٢٤) الآية الكبرى من ص ٤-٦.
(٢٥) نفس المصدر .

تأثير كتاب كامل آخر؟

فـالجواب: وهو جواب لطيف جميل، إذ لما كان الفضل في هذا التأثير يعود إلى إعجاز القرآن الكريم وليس إلى شخصي أنا، فسأقول الجواب بلا حرج:

نعم! هو كذلك على الأغلب؛ لأن الكلمات:

تصديق وليست تصورا.[٢٦]

وإيمان وليست تسليما.[٢٧]

وتحقيق وليست تقليدا.[٢٨]

وشهادة وشهود وليست معرفة.[٢٩]

وإذعان وليست التزاما.[٣٠]

وحقيقة وليست تصوفا.

وبرهان ضمن الدعوى وليست ادعاءا

وحكمة هذا السر هي:

أن الأسس الإيمانية كانت رصينة متينة في العصور السابقة، وكان

---

٢٦ التصديق: هو أن تنسب باختيارك الصدق إلى المخبر. بينما التصور: هو إدراك المعرفة من غير أن يحكم عليها بنفي أو إثبات. وفي المنطق: التصديق هو إدراك النسبة التامة الخبرية على وجه الإذعان. والتصور: إدراك ما عدا ذلك.

٢٧ مأخوذة من قوله تعالى: (قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) (الحجرات:١٤).

٢٨ التحقيق: إثبات المسألة بدليلها بينما التقليد: قبول قول الغير بلا حجة ولا دليل.

٢٩ الشهادة: هي إخبار عن عيان. والشهود: هو معرفة الحق بالحق. أما المعرفة: فهي إدراك الشيء على ما هو عليه، وهي مسبوقة بجهل بخلاف العلم.

٣٠ الإذعان: عزم القلب، والعزم جزم الإرادة.

الانقـياد تامـا كاملا، إذ كانت توضيحات العارفين في الأمور الفرعية مقبولة، وبياناتهم كافية حتى لو لم يكن لديهم دليل.

أمـا في الوقت الحاضر فقد مدت الضلالة باسم العلم يدها إلى أسس الإيمان وأركانه، فوهب لي الحكيم الرحيم - الذي يهب لكل صاحب داء دواءه المناسـب - وانعم علي سبحانه شعلة من "ضرب الأمثال" التي هي مـن اسـطع معجزات القرآن وأوضحها، رحمة منه جل وعلا بعجزي وضـعفي وفقري واضطراري، لأنير بها كتاباتي التي تخص خدمة القرآن الكريم. فله الحمد والمنة:

فبمـنظار "ضرب الأمثال" قد أظهرت الحقائق البعيدة جدا أنها قريبة جدا.

وبوحدة الموضوع في "ضرب الأمثال" قد جمعت اكثر المسائل تشتتا وتفرقا.

وبسـلم "ضرب الأمثال" قد توصل إلى أسمى الحقائق وأعلاها بسهولة ويسر.

ومـن نـافذة "ضرب الأمثال" قد حصل اليقين الإيماني بحقائق الغيب وأسس الإسلام مما يقرب من الشهود.

فاضـطر الخيال إلى الاستسلام وأرغم الوهم والعقل إلى الرضوخ، بل النفس والهوى. كما اضطر الشيطان إلى إلقاء السلاح.

حاصل الكلام:

انـه مهما يظهر من قوة التأثير، وبهاء الجمال في أسلوب كتاباتي، فإنها

ليست مني، ولا مما مضغه فكري، بل هي من لمعات "ضرب الأمثال" التي تتلألأ في سماء القرآن العظيم، وليس حظي فيه الا الطلب والسؤال منه تعالى، مع شدة الحاجة والفاقة، وليس لي إلا التضرع والتوسل إليه سبحانه مع منتهى العجز والضعف.

فالداء مني والدواء من القرآن الكريم.[31]

١٦ – صفات الأديب الكبير

كل الصفات التي يفترض أن تتكامل في شخصية الأديب العظيم متوفرة في شخصية "النورسي" فمن هذه الصفات:

١- أن يكون الأديب الكبير ذا ثقافة واسعة ملما بثقافة لغته وثقافات الأمم الأخرى.

٢- أن يكون له نظرة فلسفية شاملة تشمل الحياة والوجود والدين والدنيا، وأن يكون قادرا بأدواته الفنية على إبراز ملامح هذه الفلسفة الشخصية أو هذه الرؤى والقناعات الفكرية إلى عالم الوجود والتأليف والشرح والتوضيح للناس.

٣- أن يحمل رسالة سامية شريفة ويقف حياته وقلمه على خدمتها.

٤- أن يملك القدرة العقلية والفكرية العالية إلى جانب خصوبة الروح والوجدان والمشاعر والاحساسات الإنسانية.

---

٣١ المكتوبات/٤٨٦-٤٨٧

٥- أن يملـــك الشخصـــية المستقلة والعقلية المتميزة وأن يفرض آراءه وأفكـــاره ومشاعره على القراء بما يملك من ثقة بنفسه، وحماس لمشاعره، وإيمان برؤاه وقيمه السامية ومكتشفاته في الكون والطبيعة والحياة.

٦- أن تكـــون لـــه خصوصيات وأحوال تحدد ملامح شخصيته فلا تختلط بخصوصيات شخصية أخرى.

٧- أن تكون لديه موهبة جذب القارئ والتأثير فيه .

إن كل هذه الصفات والملامح الشخصية متوفرة في شخصية "سعيد النورســـي" ولنســـتمع إلى بعض أقواله عن نفسه، أو أقواله العامة لنرى ونحـــس الطابع الأدبي والشخصية الأدبية المثالية التي وصلت القمة في عالم الأدب والفكر والروح والوجدان والدين.

١٨ - العزلة والخلوة

يقول "النورسي" عن نفسه:

(ولكـــن بعد هذه الفترة وليت وجهي كليا عن الدنيا وقبرت "سعيد القديم" وأصبحت إنسانا جديدا يعيش للآخرة، فانسللت من حياة المجتمع ونفضـــت يـــدي من كل ما يخصهم، فاعتزلت الناس في "تل يوشع" في اســـتانبول، ومن ثم في مغارات في جبل "وان" و "بتليس" بت في مجاهدة مســـتديمة مع روحي ووجداني وانفردت بعالمي الروحي.. أخذتني الأقدار نفـــيا من مدينة إلى أخرى.. وفي هذه الأثناء تولدت من صميم قلبي معان جلـــيلة نابعـــة مـــن فيوضات القرآن الكريم. أمليتها على من حولي من

الأشخاص تلك هي الرسائل التي أطلقت عليها "رسائل النور" إنها انبعثت حقا من نور القرآن الكريم) [٣٢].

١٩ - التراب الشاعر والصديق

وبالسياق مع مقولته الشهيرة "في المألوفات خوارق المعجزات" إذا ما دققنا النظر وسبرنا الغور، يلفت "**النورسي**" الانتباه إلى تراب الأرض، موطئ الأقدام، فمن كثرة ما صحبناه وشهدناه وألفناه، لم يعد يثير انتباه أحد، أما عند "**النورسي**" فهو واحدة من خوارق المعجزات الإلهية.. هذا الصامت المتكلم بألف لسان ولسان، كلامه النبت والزهر والشجر، أسير الأشواق، وشاعر اللون والشكل والصورة.. في ألوان الورود والزهر والثمر تتوهج جمرات قلبه، وعلى وجناتها يسطع مذاب فؤاده، ورقة حسه.. صديق الإنسان ورفيقه على مدى حياته وبعد مماته.. وجوده من طينته.. وإليه يعود في خاتمة حياته.. إذا مسه الإنسان فجر أريحيته وحرك كوامن عطاياه فوهب له كنوزه، وأعانه على بناء حضارته، وإقامة صروح مدنيته، فيا له من صديق صدوق، ورفيق حنون.. وإليك الآن ما يقوله "**النورسي**" في التراب:

(اعلم : أن مما أفيض على قلبي من فيض القرآن الكريم؛ كثرة ذكره "إحياء الأرض" ولفت أنظار البشر إلى "التراب".. إن الأرض قلب العالم، والتراب قلب الأرض، وإن أقرب "السبل" إلى المقصود يذهب في التراب

---

(٣٢) انظر الشعاعات للنورسي ص ٥٤١ – ترجمة الصالحي .

مـــن باب التواضع والمحوية والفناء، بل هو اقرب من أعلى السماوات إلى خـــالق السماوات. إذ لا يرى في الكائنات شيء يساوي التراب في تجلي "الربوبـــية" علـــيه، وفعالـــية القدرة فيه، وظهور الخلاقية منه، والمظهرية لجلوات اسمي "الحي القيوم".

وهكذا.. فكما أن "عرش الرحمن" على الماء، كذلك إن "عرش الحياة والأحياء" على التراب، والتراب أجمع المرايا وأتمها، إذ مرآة الكثيف كلما كانـــت ألطـــف وأشف تريك صورة الكثيف أوضح وأظهر وأتم.. لكن مرآة اللطيف النوراني كلما كانت أكثف، كان التجلي عليها بالأسماء أتم، ألا ترى الهواء لا يأخذ من فيض الشمس إلا ضياء ضعيفا، والماء وإن أراك الشـــمس بضـــيائها لكنه لا يقدر على فصل ألوانه، مع أن التراب يريك بأزاهيره مفصل كل ما اندمج في ضيائها من الألوان السبعة ومركباتها، مع أن هـــذه الشمس قطرة ملتمعة كثيفة بالنسبة إلى نور شمس الأزل. وتزين الـــتراب وتـــبرجه في الربـــيع بما لا يحد ولا يعد من لطيفات الأزاهير، وجمـــيلات الحيوانات المنادية على كمال ربوبيته شاهد مشهود. فسبحان من يتعرف إلينا بلطيف صنعه، ويعرف الخلائق قدرته بعجائب تصرفه في التراب..

وممـــا يرمز إلى هذا السر الحديث الشريف :(أقرب ما يكون العبد من ربـــه وهـــو ســـاجد)[٣٣] فإذا كان هذا هكذا.. فلا تتوحش من التراب وذهابك فيه، ولا تندهش من القبر وسكونك فيه) [(٣٤)].

---

٣٣ تكملة الحديث : "فاكثروا الدعاء ": أخرجه مسلم برقم ٤٨٢ وأبو داود برقم ٨٧٥ والنسائي ٢ / ٢٢٦ عن أبي هريرة (وانظر كشف الخفاء للعجلوني ١ / ١٦٠)

٢٠ – مشاهد من حديقة الأرض

وإذا كـــان "النورسي" يرى في "تراب الأرض" عالما مواجا بالحركة، مـــتفجرا بالإمكانـــات والقـــدرات، منطويا على الكثير من أسرار الخلق والخلقة، فهو يرى كذلك أن الأرض نفسها حديقة إلهية شاسعة الأرجاء، ولوحة فنية متناغمة الألوان، من أين نظرت إليها طالعتك بما يشده العين، ويهـــز أحاسيس الجمال في نفسك، ومن أية زاوية جئتها استقبلتك بدفق هـــائل مـــن صور الحسن التي تعكسها مرايا الجمال الكوني على صفحة الخيال البشري، طاهرة طهارة الطفولة العذبة ترف بها أجنحة السماء.

"والنورســـي" يعبر عن هذه المعاني في القطعة الآتية التي أشبه ما تكون بالشعر الحر حيث يقول :

(سبحان من جعل حديقة أرضه:

مشهر صنعته

محشر فطرته

مظهر قدرته

مدار حكمته

مزهر رحمته

مزرع جنته

ممر مخلوقاته

---

(٣٤) المثـــنوى العربـــي النوري ص ٤١٢ وانظر مختارات من المثنوي العربي النوري لكاتب هذه السطور ، ص ٣٢ – ٣٣ / الموصل / مطبعة الزهراء ١٤٠٤ هـــ – ١٩٨٣ م .

مسيل موجوداته

معرض مصنوعاته

تبسم الأزهار من زينة الأثمار

تسجع الأطيار من نسمة الأسحار

تهزج الأمطار على خدود الأزهار

ترحم الوالدات على الأطفال الصغار

تعرف ودود

تودد رحمن

تحنن منان

للجن والإنسان

والروح والحيوان

والملك والجان

البذور والأثمار

والحبوب والأزهار

معجزات الحكمة

خوارق الصنعة

هدايا الرحمة

براهين الوحدة

شواهد لطفه في دار الآخرة

الشمس كالبذرة

والنجم كالزهرة

والأرض كالحبة

لا تثقل عليه بالخلق والتدبير

والصنع والتصوير

فالبذور والأثمار مرايا الوحدة

في أقطار الكثرة

إشارات القدر

ورموزات القدرة

تلك الكثرة من منبع الوحدة

ثم إلى الوحدة تنتهي

والإنسان هو المقصود الأظهر

من خلق هذا الشجر

فالبشر ثمر لهذه الكائنات

وهو المقصود الأظهر

لخالق الموجودات

فالإنسان الأصغر

هو المدار الأظهر

للنشر والمحشر) [٣٥].

(٣٥) المثنوي العربي النوري – النورسي ص ١٤٥ وانظر المختارات ص ٩٧ – ٩٩ .

٢١- الإنسان الكامل

يعلـــو الجمال مع علو أخيلة الروح، ويرف مع أشواق القلب، وتسمو الذات البشرية بما تناله من أذواقه، وتحوزه من معانيه، وإذا ما سرى روح الجمـــال إلى بـــاطن الفكر ارتفع قدره، وتقدس سره، وشرفت مقاصده، وســمت غاياته، وجادت قرائحه، وانجذبت إليه الموجودات، وحفلت به الكائـــنات . واكتسب صفات "الإنسان الكامل" كما هو قائم في خيال الكـــون، وكما حلمت به البشرية، وبشرت به الأديان، فتنـــزل عليه - عـــند ذاك - ألطاف ربه، ورحمات خالقه، ويصير جديرا بأن تخلق من أجلـــه الأفـــلاك، وتـــتزين لناظريه الأرض، وتزف إليه الطبيعة. ولعظم المهمات الملقاة على عاتقه، زوده خالقه بالقدرات والطاقات، وأطلق لقواه العـــنان، و لم يحدد لها حدا تقف عنده، و لم يضع من دونها حاجزا يحجزها عن السريان حيث تشاء، وكأنه - تعالى - يقول له:

أيها الإنسان يا من خلقته لنفسي، وصنعته مرآة لأنوار تجلياتي، انطلق ولا تقـــف، امض حيث تمضي بك قواك، وسر حيث تسير بك أفكارك ومشاعرك.. استجمع كل لطائفك، واحشد كل طاقاتك، ولملم ما تشتت مـــن نفســـك وعقلك، وافتح منافذ حواسك، لتعرف وتذوق، وتتلهف وتشـــتاق، ثم لتعكس مرآة روحك لمعات من الجمال الأقدس الذي كل جمال إن هو إلا قبسة من قبساته ،وقطرة من بحار أنواره.

وحول هذه المعاني يدور أدب "النورسي" في القطعة الآتية:

(اعـــلم! انـــه يلـــزم لمثل هذه التزيينات والكمالات والمناظر الحسنة وحشمة الربوبية وسلطنة الألوهية، من مشاهد لها، ومتنـــزه بها، ومتحير

فـيها، ومتفكر ينظر إلى أطرافها ومحاسنها، فينتقل منها إلى جلالة صانعها ومالكها واقتداره وكماله.

نعـم، إن الإنسان مع جهالاته وظلماته له استعداد جامع كأنه أنموذج مجمـوع العـالم، واودع فيه امانة يفهم بها الكنـز المخفي ويفتحه. ولم يحدد قواه، بل ارسلت مطلقة فيكون له نوع شعور كلي بشعشعة كمال حشمة جلال سرادق جمال عظمة ألوهية سلطان الأزل. وكما أن الحسن يسـتلزم نظـر العشق، كذلك ربوبية النقاش الازلي تقتضي وجود نظر الإنسـان بالـتقدير والحيرة والتحسين والتفكر، وتستلزم ايضا بقاء ذلك المتفكر المتحير إلى الأبد ورفاقته لما تحير فيه في طريق أبد الآباد.

نعم، إن من زين وجوه الازاهير كما أوجد لها عشاقا مستحسنين من أنواع الذبابات والعصافير، وزين خدود الملاح فأوجد لها أنظار المشتاقين الوالهين.. كذلك من زين وجه العالم بهذه الزينة الجاذبة، ونور عيونه بهذه المصـابيح المتبسـمة وحسنه بأنواع المحاسن المتلألئة، وادمج في كل نقش بكمال الوضوح توددا وتعرفا

وتحببا، لا يخليه من أنظار مشتاقين متحيرين متفكرين منجذبين عارفين بقـيمة كل؛ فلجامعية الإنسان صار الإنسان الكامل سبب خلق الأفلاك علة غائية له ولمرة له..)[٣٦].

---

(٣٦) المثنوي العربي النوري – النورسي ص ٣١١ وانظر المختارات ص ٦٧ – ٦٨ .

٢٢- "النورسي" ناقدا

إن عظمـــة الفكـــرة وصـــدقها وأصالتها، هي التي تعطي الكلمات والألفاظ التي تحملها شيئا من خصائص عظمتها وقوتها، فيصبح اللفظ - مطـــية الفكـــر - قويا وعظيما بعظمة ما يحمل من أفكار يراد منه التعبير عـــنها مهمـــا كانت درجة هذا اللفظ متواضعة في رأي البلاغة والجزالة. ويبقى الكلام ضعيفا وهشا عندما تكون الفكرة بحد ذاتها ضعيفة وهشة، مهما حاول صاحبها أن يزين كلامه ويموهه في عيون قرائه.

والاهـــتمام بـــاللفظ قبل المعنى، وبالشكل قبل المحتوى، انتكاسة أدبية وحضـــارية تعـــتري الأمة في حال ضعفها، وعندما يصاب عقلها بالوهن والهـــزال، وقد مرت بهذه الأمة هذه الانتكاسة في فترات سود من تاريخها الأدبي والفكـــري، ومازالـــت - مع الأسف الشديد- بقايا هذه الظاهرة المرضـــية تطـــل برأسها بين الحين والآخر من أقلام البعض من أدباء هذه الأمة على الرغم من الجهود المضنية التي بذلها ويبذلها النقاد لإنقاذ الأقلام من آثار هذا النهج المرضي.

و" النورسي " أديب أفكار ومعان، وصاحب رسالة إيمانية يريد أداءها إلى قـــرائه من أقصر الطرق، مقتصدا بالكلمات ما وسعه ذلك، فأسلوبه أسلوب برقي تلغرافي- إذا صح التعبير- يعنى بالفكرة ووصولها إلى القارئ بشكل عفوي دون زخارف كلامية، أو طبول لفظية فارغة.

وفي تحلـــيله لأسباب رواج أدب الألفاظ في بعض فترات تاريخ الأمة يقول "النورسي":

"يخبرنا التاريخ بأسف بالغ إنه: لما انجذب الأعاجم بجاذبة سلطنة العرب فسدت بالاختلاط ملكة الكلام المضري، التي هي أساس بلاغة القرآن، إذ لما تعاطى الأعاجم والدخلاء صنعة البلاغة العربية، حولوا الذوق البلاغي من مجراه الطبيعي للفكر، وهو نظم المعاني إلى صنعة اللفظ، وذلك إن المجرى الطبيعي لأنهار الأفكار والمشاعر والأحاسيس إنما هو نظم المعاني، ونظم المعاني: هو الذي يشيد بقوانين المنطق. وأسلوب المنطق: متوجه إلى الحقائق المتسلسلة... والفكر الواصل إلى الحقائق: هو الذي ينفذ في دقائق الماهيات ونسبها... هي الروابط للنظام الأكمل في العالم، والنظام الأكمل: هو المندمج فيه الحسن المجرد الذي هو منبع كل حسن. وتلك الجنة المزهرة ودقائق الماهيات ونسبها: هي التي تجول فيها بلابل عاشقة للأزاهير المسماة بالشعراء والبلغاء وعشاق الفطرة... ونغمات تلك البلابل بمدها صدى روحاني هو نظم المعاني".

ويمضي قائلا:

ولكن لما حاول الدخلاء والأعاجم الدخول في صفوف الأدباء فلت الأمر، لأن مزاج الأمة مثلما أنه منشأ أحاسيسها ومشاعرها، فأن لسانها القومي يعبر عن تلك المشاعر ويعكس تلك الأحاسيس. وحيث أن أمزجة الأمة مختلفة. فاستعداد البلاغة في ألسنتها متفاوت أيضا. ولا سيما اللغة العربية الفصحى المبنية على قواعد النحو.

وبناءا على هذا فأن نظم اللفظ الذي هو أرض قاحلة لا تصلح لأن تكون مسيلا لجريان الأفكار، ومنبتا لأزاهير البلاغة، وقد أعترض مجرى البلاغة الطبيعي وهو نظم المعنى فشوش البلاغة.

ثم يمضي قائلا:

فـــداروا -أي أولئك الأدباء - حيث دار اللفظ بعد تصور المعاني، بل حتى غلب اللفظ المعنى وسخره لنفسه، فاتسعت المسافة بين طبيعة البلاغة، وهـــي كـــون اللفـــظ خادما للمعنى، وصنعة العاشقين للفظ. فأن شئت فادخل في "مقامات الحريري" فأنه مع جلالة قدرة في الأدب فقد استهواه حـــب اللفـــظ وبذلك أخل بأدبه الرفيع، فأصبح قدوة للمغرمين باللفظ، حتى خصص "الجرجاني" -ذلك العملاق- ثلث كتابيه "دلائل الأعجاز" و "أسرار البلاغة" دواء لعلاج هذا الداء.

نعم إن حب اللفظ داء، ولكن لا يعرف أنه داء!

وينبه فيقول: كما أن حب اللفظ مرض، كذلك حب التصوير "الفني" وحب الأسلوب، وحب التشبيه، وحب الخيال، وحب القافية مرض مثله، بـــل ستكون هذه الأمراض بالإفراط أمراضا مزمنة في المستقبل، كما تبدو البوادر من الآن حتى يضحى بالمعنى في سبيل ذلك الحب.

ويســـتطرد فيقول: نعم...! اللفظ يزين ولكن إذا اقتضته طبيعة المعنى وحاجـــته... وصورة المعنى تعظم وتعطى لها مهابة ولكن، إذا أذن المعنى، والأســـلوب ينور ويلمع ولكن إذا ساعده استعداد المقصود... والتشبيه يلطـــف ويجمـــل ولكـــن إذا تأســـس على علاقة المقصود وارتضى به المطلـــوب... والخيال ينشط ويسيح ولكن إذا لم يؤلم الحقيقة. ولم يثقل عليها، وأن يكون مثالا للحقيقة متسنبلا عليها.(٣٧)

---

(٣٧) صيقل الإسلام ١١٦،١١٥،١١٤/ترجمة وتحقيق إحسان قاسم الصالحي ١٤١١هـ-١٩٩١م.

ويقول عن الخيال: "لابد في كل خيال من نواة من حقيقة"

ويقـــول عن الأسلوب: فالأسلوب بهذا قالب الكلام، كما هو معدن جماله ومصنع حلله الفاخرة.

ويقـــول كذلـــك: "فـــإذا أنعمت النظر في أسلوب الكلام -الكلام الطبـــيعي الفطـــري- ترى المتكلم في مرآة الأسلوب، حتى كأن نفسه في أنفاسه بذاته وماهيته في نفثاته، وصنعته ومزاجه ممتزجان في كلامه"[(٣٨)]

ويقول كذلك: "إن قوة الكلام وقدرته: أن تتجاوب قيوده، وتتعاون كيفـــياته، ويمد كل بقدره مشيرا إلى الغرض الأصلي، ويضع إصبعه على المقصد، فيكون مثالا ومصدرا لدستور:

عباراتنا شتى وحسنك واحد وكل إلى ذاك الجمال يشير

وكأن القيود مسيل ووديان، والمقاصد حوض في وسطها تستمد منه.

حاصـــل الكـــلام: يلزم التجاوب والتعاون والاستمداد لئلا تتشوش صورة الغرض المرتسمة على شبكة الذهن والملتقطة بنظر العقل.

ويقول: ينشأ التناسب ويتولد الحسن ويلمع الجمال بنشوء الانتظام من هذه النقطة.

فـــتأمل في كـــلام رب العزة: (ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك) (الأنبـــياء:٤٦) المسوقة للتهويل، وتخويف الإنسان، وتعريفه بعجزه وضعفه. فبـــناء على القاعدة البيانية: "ينعكس الضد من الضد" ترى الآية الكريمة

---

(٣٨) المصدر نفسه ص ١١٨-١١٩.

تــبين تأثير القليل من العذاب بقصد التهويل والتخويف، فكل طرف من الكلام يمد المقصد -وهو قليل- عن جهته وذلك بـ:

التشكيك والتخفيف في لفظ " إن ".

والمس وحده دون الإصابة في " مست " .

والتقليل والتحقير في مادة " نفحة " وصيغتها وتنكيرها.

والتبعيض في " من ".

والتهوين في " عذاب " بدلا من " نكال ".

وإيماء الرحمة في "ربك ".

كل ذلك يهول العذاب ويعظمه بإراءة القليل، إذ إن كان قليله هكذا فكيف بعظيمه.. نسأل الله العافية![39]

وفي مكان آخر يقول "أي إن البليغ يتمثل أشعة الحقائق المنعكسة من الخارج كالمرآة وكأنه يقلد الخلقة، ويحاكي الطبيعة بصنعته الخيالية وبنقش كلامه"[40]

ويقــول عن فن الكتابة: "وينبغي أيضا مساوقة الطبيعة والتتلمذ عليها بصنعة المتكلم الخيالية، كي تنعكس قوانينها في صنعته "[41]

---

(٣٩) المصدر نفسه ص ١٢١-١٢٢.
(٤٠) المصدر نفسه ص ١٣١.
(٤١) المصدر نفسه ص ١٣٦.

ويقول عن قلب الأديب ولسانه "وكثيرا ما لا يفهم اللسان فهما تاما لغة القلب، لا سيما إن كان القلب يئن في غور المسائل وفي أعماق بعيدة كغيابة الجب فلا يسمعه اللسان، وكيف يترجمه؟"(٤٢)

* * *

نخلــص مما تقدم من آراء "النورسي" النقدية في الأدب والأدباء إلى أن العمــل الأدبي هو عمل فكري مهندس يستوي على قاعدة، صلبة حجر الأساس فيه معرفة المقصود من العمل كله لتدور عليه وحوله ما يشيد من هــياكل بنائــية تســهم في إقامتها روح الأديب ووجدانيات الكلمات والأنمــاط المســتخدمة في عملــية التشييد بمدلولاتها الوجدانية والروحية والفكــرية، مستفيدا مما كان قد تعلمه من الطبيعة والحياة، ومن ملامسته لروح المنطق في عملهما في الهدم والبناء فيجعله مسطرا يقيس عليه نسب المدنــون الكلامــي بين الكلمة والكلمة، والفكرة والفكرة، وبذلك يأتي العمل الأدبي متكاملا مقنعا مؤثرا في المتلقي، وهو المطلوب من كل عمل أدبي.

٢٣- العالمية في أدب "النورسي"

أن الأعمــال الأدبــية الكــبرى الــتي نالت الخلود على مر الدهور والعصــور، هــي تلــك الأعمال التي تعالج قضايا الإنسان ذات المساس الصــميمي بقلــبه وروحه، وبمصيره ومآله، فهي سرعان ما يعرفها العالم

---

(٤٢) المصدر نفسه ص ١٤١

وتـــتلقفها الشعوب، وتقرأها بشغف، وتجد أصداء لها في روحها وجوهر وجدانها.

فالأعمال الأدبية حتى الأسطورية منها تحظى باهتمام بالغ من مختلف الشـــعوب إذا كانت تدور حول مكتشفات الإنسان ومغامراته من أجل نيل الخلود، هذا الحلم الذي راود البشرية منذ طفولتها وحتى اليوم.

وعلى الرغم من أن "رسائل النور" النورسية ترجمت إلى بعض لغات العـــالم واستقبلت هناك بحفاوة وتقدير كبيرين، باعتبارها رسائل "إيمانية" معنـــية بالدرجة الأولى بالجوانب الإيمانية لدى الإنسان وهي لا تخلو من لمحات أدبية وفنية بين سطورها وأفكارها، إلا أن كتابه الأدبي الأعظم وهو "المثـــنوي العربي النوري" ما زال مجهولا ككتاب أدبي فريد يمكن أن يشق طريقه بجدارة إلى العالمية التي حازها من قبله "مثنوي الرومي" إذا ما حظي بالترجمة المتقنة إلى إحدى لغات العالم المعتبرة.

فهذا الكتاب يعبر عن أحلام القلب البشري في الخلود، ويرنم شجاه، وينشـــد وجـــده، ويفصح عن آلامه وآماله وحنينه إلى عالم مصنوع من الجمال والحق والعدل، لذا فهو يمت بصلة إلى كل قلب، ويضرب بعرق نابض في جذر كل روح.

وحتى الأرواح الحبيسة في سجون سحيقة من التردي يمكنها أن تجد في هذا الكتاب مفاتيح الانطلاق مع أجنحة الخيال إلى حيث تلتقي حقيقتها السامية الآتية من عالم "الأمر الإلهي" متجاوزة بذلك مفاوز الفناء التي تعم الكرة الأرضية. ومتعالية فوق الآفلات الفانيات من رموز الحياة والتي تئن تحت مطارق البلى ومعاول العدم، بينما يظل سمع الأرض تصكه هتافات

الأرواح في الأعـــالي مع روح "النورسي" مرددة مع إبراهيم عليه السلام : (لا أحب الآفلين) (الأنعام:٧٦).

إن ســنا الإشراق، ولمعة الاحتراق المنبعثة من صفحات هذا الكتاب تذيــب أيــة مغالــيق وأقفال على القلب والفكر والروح، فكما تجد فيه الأرواح محركات منطلقاها، فكذلك الأفكار تجد فيه منطلقات مجنحة غير نمطية ولا تقليدية بل ابتكاريه إنبعاثية مثيرة للتفكير العميق والأصيل.

ولا يعــدم القــارئ تفسيرا للغز الكون والحياة، ومعرفة الحكمة من خلقهما، والمغزى من وجود الإنسان في هذه الحياة وما ينتظره في الآخرة. وإنــه لينشئ في القارئ حسا جماليا وشعورا مرهفا يسمو بأذواقه، ويفتح منافذ الإدراك فيه ليدرك عن كثب أن الجمال هو جوهر الأرض، وأن ما يتفــتق عنه التراب من روائع الأزهار والأوراد بألوانها وأشذائها وعجائب حسنها آية ذلك الجمال، وإشارة إليه. وهو لا ينفك يقدم العزاء والمواساة لصــاحب الرغــبات المحبطة والتي تشكل أكثر أوجاعه آلاما، ويقدم له تفســيرا مقنعا يجعله يرى المحن منحا، والإحباطات إرهاصات لنجاحات قادمة، وإنه ليغسل نفس الإنسان من أوجاع الألفة والرتابة والملل، ويضعه مــن دون هــذه الحواجز وجها لوجه مع الموجودات يحاورها وتحاوره، فتبعث فيه حيوية إيجابية نشيطة تجعله أكثر استمتاعا بالحياة، وأكثر تفهما لها وإدراكا لمعانيها الإلهية.

وتعــبيراً عن أشواقه إلى الخلود، وإشفاقه من الزوال يصرخ "النورسي" هاتفا في حزن أليم:

"لا أريد... من كان زائلا لا أريد.

أنا فان...من كان فانيا لا أريد.

أنا عاجز...من كان عاجزا لا أريد.

سلمت روحي للرحمن، سواه لا أريد.

بل أريد.

حبيبا باقيا أريد.

أنا ذرة.

شمسا سرمدا أريد.

أنا لا شيء ومن غير شيء، الموجودات كلها أريد.

* * *

لا تدعوني إلى الدنيا، جئتها وشاهدت الفساد.

إذ الغفلة حجبت أنوار الحق.

رأيت الأشياء والدنيا أعداء ضارين.

ذقت اللذائذ، ولكن.

وجدت الألم في الزوال.

أما الوجود فقد لبسته.

آه...لا تسل كم عانيت من الألم في العدم.

وإن قلت الحياة.

فقد رأيتها عذابا في عذاب.

نعم، لما استتر نور الحق عني.

ورأيت البقاء بلاء.

والكمال هباء.

والعمر ذهب أدراج الرياح.

نعم!

بدونه، انقلبت العلوم أوهاما، وأصبحت الحكم أسقاما.

والأنوار ظلمات،

والأحياء مواتا.

والأشياء أعداء.

ولمست الضر في كل شيء.

والآمال انقلبت آلاما.

والوجود هو العدم بعينه.

والوصال زوالا.

والألم يعصرني مما لا بقاء فيه،

نعم..! إن لم تجد الله فالأشياء كلها تعاديك.

أذى في أذى .

بل هو عين الأذى. وإن وجدت الله.

فلا بد أن تجده في ترك الأشياء.

فقد رأيت بذلك النور: الجنة في الدنيا.

والأموات كلهم أصبحوا أحياء.

والأصوات كلها أذكار وتسابيح.

والأشياء كلها مؤنسة.

واللذائذ في الآلام نفسها.

والحياة أصبحت مرآة تعكس أنوار الحق.

والبقاء رأيته في الفناء.

والذرات ألسنة ذاكرة.

يقطر من ألسنتها ويتفجر من عيونها شهد شهادة الحق.

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه واحد".[٤٣]

٢٤- الإنسان الخارق

فكـــر حـــي لا يموت.. وروح ثاقب متوهج لا ينطفئ.. وقلب بصير صادق الرؤية.. شهد سجود العالم بين يدي الله.. وسمع تسابيح الكائنات والموجـــودات في الأرض والسماوات.. من كفكف دمع الإنسانية الباكية عـــلى نفســـها غـــيره.. من مسح قلب الإنسان من آلام الزيغ والضلال سواه.. من خاض بحار الجمال الإلهي وأخذ الإنسان إليه معه.. من وهبته الكائـــنات نفسها، ومنحته حق الكلام عنها وأوكلته برفع تسابيحها إلى

---

٤٣ المثنوي العربي للنوري – النورسي ص٢٨٩

خالقــه.. من لمس قلب الوجود بأنامل الود والمحبة.. من نشر في أحشاء الكون الأمن والسلام.. من عرف الإنسان بنفسه، وحل لغز خلقه.. من رفع الأرض إلى السماء وحمل أمانة الارتقاء بالإنسان إلى ما فوق الكون وتحت سدرة المنتهى.. من صير ليل البشر نهارا، وشتاءه ربيعا.. من حول يــتم الكـــون وبكاءه إلى عيد بهيج.. من أحيا موات الروح، وغرس في القلب الخلود.. من ارتقى فوق الزمان والمكان، وعلا فوق أطباق العقول حــتى وقـــف في برزخ بين الإمكان والوجوب.. من صار شمسا للكون، وعينا للوجود، ولسانا للخلائق، ودلالا لمحاسن سلطنة الربوبية.. من صار مــثالا للـــرحمة الربانـــية، وتمـــثالا للمحـــبة الرحمانية، وشرفا للحقيقة الإنسانية..؟!

من غير محمد ﷺ كان كل ذلك وفوق ذلك، والآن إليك هذه القطعة الأدبية " النورسية " التي تتناول هذه المعاني :

(اعـــلم ..! إن للمحـــيط الـــزماني والمكاني تأثيرا عظيما في محاكاة العقـــول..! فـــإن شـــئت فـــتعال نخلع هذه الخيالات الزمانية والعصرية والمحيطية، ونتجرد من هذا اللباس الملوث، ثم نخوض في بحر الزمان السيال، ونسبح فيه إلى أن نخرج إلى عصر السعادات التي هي الجزيرة الخضراء فيما بين العصور والدهور، فلننظر إلى جزيرة العرب التي هي المدينة الشهباء في تلـــك الجزيرة الزمانية . ولنلبس ما نسج لنا ذلك الزمان، وخاطه لنا ذلك المحيط، حتى نـــزور ولو بالخيال - قطب مركز دائرة الرسالة، وهو على رأس وظيفته يعمل .

فافتح عينيك وانظره..! فأن أول ما يتظاهر لنا من هذه المملكة: شخص خارق له حسن صورة فائقة، في حسن سيرة رائعة، فها هو آخذ بيده كتابا معجزا كريما، وبلسانه خطابا موجزا حكيما، يبلغ خطبة أزلية ويتلوها على جميع بني آدم، بل على جميع الجن والأنس، بل على جميع الموجودات .

فيا للعجب..! ما يقول..؟ نعم، يقول عن أمر جسيم، ويبحث عن نبأ عظيم، إذ يشرح ويحل المعمى العجيب في سر خلقة العالم، ويفتح ويكشف الطلسم المغلق في سر حكمة الكائنات ويوضح ويبحث عن الأسئلة الثلاثة التي أشغلت العقول، وأوقعتها في الحيرة. إذ هي الأسئلة التي يسأل عنها كل موجود وهي: من أنت؟ ومن أين؟ وإلى أين؟)[٤٤]

ثم يستطرد قائلا: (أنظر إلى هذا الشخص النوراني كيف ينشر من الحقيقة ضياء نوارا ومن الحق نورا مضيئا حتى صير ليل البشر نهارا وشتاءه ربيعا، فكأن الكائنات تبدل شكلها فصار العالم ضاحكا مسرورا بعدما كان عبوسا قمطريرا) [٤٥]

٢٥- الفناء والأبد

أي أعماق مجهولة غامضة يسيرها قلم هذا الرجل العجيب في أكوان الروح وفي سماوات القلب؟! حتى إذا أوغل صعدا، وعلا مشارفا، تراءت له "الدنيا" من الأعالي فإذا هي باطل في باطل، وعرض زائل، وخيال

---

(٤٤) المثنوي العربي النوري ص٦٩.

(٤٥) المصدر نفسه ص ٥٧.

ذاهـــب.. وإذا بفضـــاء الروح يشتعل ببوارق الأبدية الخاطفة، ولوامعها الكاشـــفة، وإشـــاراتها الهاديـــة.. حتى إذا عاد من رحلته تلك توجه إلى الإنسان هاتفا:

أيهـــا الإنســـان المقهور الذاهب في حزنه وأساه.. توقف... عد.. لا تـــيأس.. ها هو بسيط الأبدية يمتد أمام ناظريك، أمم نحوه.. سر إليه.. اجـــتز شـــعابه ثم الـــق بنفسك في أحضانها وبين يديها.. ماذا تنتظر أيها الإنســـان.. أجزاء من نفسك ذهبت دفينة الماضي.. وها هي أجزاء أخر يضـــمها رمـــس يومـــك.. وبقاياك سيحملها الآتي من الزمان إلى ظلمة قـــبرك.. فما المنقذ؟ وكيف؟ وأنى؟ قلبك زورق نجاتك فدعه يأخذك إلى ضـــفاف الأبديـــة.. روحـــك سفينة خلاصك فدعها تأخذك إلى أبواب الخلـــود.. عـــبراتك المرار جمرات نار أحرقت فؤادي.. وويلات الفزع المرعـــب من أشداق الفناء ملأتني إشفاقا عليك.. جئت لأحمل إليك عزاء مفعمـــا بالأمل والرجاء في عالم أخروي لا موات فيه ولا فناء لتقر عينا، وتفرغ روعا.. إزجاؤك للأبدية.. أو إزجاء الأبدية إليك صار أكبر همي، وأعظـــم حملي، ومحور رسالتي.. أنا ما أتيتك بجديد فقلم القدرة قد كتب في فطـــرتك مـــيلا إلى الأبـــد، وأملا في الخلود.. أنا جئت أذكرك فقط بفطرتك وبما تنطوي عليه روحك من معاني الأبد والخلود.

والآن اصغ إلى "**النورسي**" في هذه المناجاة اللهيفة الصادقة المنبثقة من أعماق قلبه حيث يقول: (يا رب..! لقد بحثت في الجهات كلها "الجهات الست" فلم أجد دواء لدائي.

فنظرت إلى اليمين، وإذا بقبر أبي بالأمس.

ورنا بصري نحو اليسار، فإذا قبري في الغد.

وهذا اليوم هو تابوت يحمل جسمي المضطرب.

فجنازتي ماثلة أمامي فوق رأس عمري.

وتحت الأقدام ماء خلقتي ونخاع عظامي ممزوجين.

وكلما نظرت إلى الخلف رأيت هذه الدنيا سرابا في سراب.

وإذا مـــا امتد نظري إلى الأمام، فالقبر فاتح فاه، وطريق الأبد يتراءى من بعيد.

وإني لا أملك سوى "الجزء الاختياري" وهو عاجز، قاصر عديم الجدوى.

إذ لا مجال له للحلول في الماضي، ولا النفوذ إلى المستقبل.

وإنما ميدان تجواله هو: زمان الحال، وآن واحد سيال.

وعلى الرغم من هذا الفقر والضعف فقد كتب قلم قدرتك في الفطرة ميلا إلى الأبد أملا في الخلود.

فدائـــرة الاحتياج واسعة سعة امتداد النظر، فأينما يصل الخيال تصل الحاجة أيضا.

بينما دائرة اقتداري قاصرة.. كاليد.

ففقري وحاجتي بسعة الدنيا إذن.

ورأس مـــالي مـــثل "الجـــزء الذي لا يتجزأ" فأين هذا الجزء من تلك الحاجـــات التي تسع الكائنات..؟ ولكني أنطلق في سبيلك من هذا الجزء كي أحظى بعنايتك.

إن رحمتك المطلقة ملاذي.

فـــالذي يجد فيضا من الرحمات، لا يعتمد على هذا الجزء الاختياري الذي هو قطرة من سراب.

يـــا رب..؟ هـــذه الدنيا ما هي إلا كالمنام، وهذا العمر يذهب أدراج الرياح.

والإنسان فان بفناء الدنيا، والآمال الفانية آلام في البقاء.

تعالي أيتها النفس التي لا حدود لها ضحي بوجودك الفاني.

فخالقك الذي بيده الوجود.. موجود.

له الملك وهو المعطي، فافن نفسك كي تجد النفس البقاء.

وذلك بسر: نفي النفي إثبات.

يا إلهي.. يا ذا الجود والكرم هب لي ملكا من عندك.

وأعطني قيمة لا حدود لها، فأنك أنت الحفيظ).(٤٦)

٢٦- بين العرش والقلب

قلـــبك كلـــك أيها الإنسان.. وكلك طوع قلبك.. وكلك وقلبك يعتصـــر أحدهما نفسه في الآخر.. إلا أن قلبك يظل العرش الذي يظلك عندما تتخلى عنك ظلال الآفلات الفانيات من الأشياء التي لا جدوى من تعلقـــك بهـــا.. فإذا ما انخلعت عنها، أو انخلعت هي عنك وصلت إلى

---

(٤٦) المثنوي العربي النوري ص ١٩٨ .

الكشف الماورائي الذي يحجب عنك عوالم الغيب بعروشها، وعندئذ سترى أن ما بين عرش الرحمن وقلبك نسبة ضئيلة من العرشية تظل وجودك الذاتي كما يظل عرش الرحمن العالم.. فإذا ما بارحت روحك مسكنها الطيني، وأشرفت على العالم من فوق فسترى الظاهر مرآة للباطن، والباطن مرآة للظاهر، والملك ظل الملكوت، والملكوت ظل الملك، وأن اسميه تعالى (الظاهر - والباطن) يعملان في الخلق سوية بلا حدود بينهما، فإذا الظاهر باطن، والباطن ظاهر في علم الله تعالى الكلي.

ويبقى ومض العقل مسبارا ممدودا يتحسس خبايا البواطن في الأكوان والمكونات، ليزداد معرفة ويخصب إدراكا، وإذا كان لهذا العقل قدرة نسبية على تفسير المجردات إلا أنه أعجز ما يكون عن تفسير نفسه، لأن الومضة و القدحة الآتية من النور الكلي لا يقدر على تفسيرها إلا النور الكلي نفسه، فسبحان من بيده عرش القلوب والعقول، والملك والملكوت. والنورسي يلامس هذه المعاني في القطعة الأدبية الآتية حيث يقول!

(اعلم.. أن العرش كالقلب، فقلبك فيك ملك وأنت في قلبك ملكوت، ففي دائرة الاسم الظاهر، العرش العظيم محيط بالكل، و في دائرة الاسم الباطن هو كالقلب للكون . وفي الاسم الأول - الظاهر- يشار إليه بـ (وكان عرشه على الماء) (هود:٧)، وفي الاسم الآخر -الباطن - يرمز إليه بـ (وسقف الجنة عرش الرحمن)[47]، إذ لعرش من هو الأول

٤٧ (الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض،والفردوس أعلى الجنة وأوسطها، وفوقه عرش الرحمن..) الحديث صحيح : رواه ابن ماجة عن معاذ والحاكم عن

والآخر، والظاهر والباطن حصة من الأولية والآخرية والظاهرية والباطنية..)[٤٨]

٢٧- الجمال بين الحقيقة والمجاز

إذا رحل الجمال فجأة أورث حسرة وعذابا.. وإذا غاب الحسن على حين غرة هوى العاشق في أشد أحشاء اليأس حلكة.. وجزيرة الحب في روح المحب الحافلة بالسلام والبهجة سرعان ما تتعرض لأشد الأنواء عصفا إذا ما جاب قرارة قلبه ولم يجد سوى بقايا جمال محطم ابتلعه يم الزمان وغدا ذكرى من الذكريات الماضيات، والذي يعيش تحت سماء العشق الناعمة الزرقاء الصافية يجن جنونه عندما يرى السنة نار الفراق وهي تأكل ذلك اللطف الوديع من فوقه وتحيله إلى دخان ورماد.

هيا أيها العشاق..! يا شعراء الحب والجمال.. املأوا الدنيا نواحا، أغرقوها دموعا على جمال عندما جئتموه لم تجدوه غير سراب.. وعلى عشق تاه وضل طريقه وأخطأ حبيبه، وعلى آمال ضائعات في محبوب مضى وتوارى ولم يخلف وراءه سوى أخاديد عميقة من الألم في الروح والقلب.

عبادة بن الصامت وعن أبي هريرة، وابن عساكر عن أبي عبيدة الجراح، رضي الله عنهم. (صحيح الجامع الصغير وزيادته ٣١١٦) قال المحقق: صحيح وانظر الأحاديث ٣٤٢٣، ٤١٢٠ من المصدر نفسه، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة ٩١٩ يشير إلى حديث: سقف الجنة عرش الرحمن.

(٤٨) المثنوي العربي النوري – النورسي ص١٩٥.

لماذا المجاز – يا عشاق –إذا كانت الحقيقة أقرب إلينا منه.. ولماذا نرمز ونكـــني إذا كـــنا قـــادرين على أن نشير ونصرح.. ولماذا الركض وراء السرابات إذا كانت الينابيع الثرى تجري من تحتنا..؟

كـــل جمال على الأرض هو رمز لجمال في السماء، والحسن في عالم الشـــهادة خيال لحسن في عالم الغيب.. والمحبوبات والمعشوقات هنا على الأرض إنما هي أطياف وظلال وخيالات وصور عكستها مرايا المغيبات.. ومـــا يظـــنونه في المعشوق من بقاء فهو وهم وإلى زوال سيمضي.. وما يزعمونه من خلود فسيلتهمه الفناء يوما ما.

فالجمال عند "النورسي" مجازي وحقيقي، فالمجازي وهم لا يسعد قلبا ولا يروي روحا، لأنه زائل حائل لا ثبات لـــه ولا بقاء، أما الحقيقي فهو روح الـــروح، وحـــياة القلب، يبقى ببقاء العاشقين، ويبقون هم ببقائه، ويخلدون بخلوده، ويحيون بحياته، فالقلوب لـــه خلقت وله رصدت، وأي انحـــراف عنه إنما هو انحراف عن جوهره وحقيقة فطرته لابد أن يعاني من جرائه شتى صنوف الألم والعذاب، وإلى ذلك يشير **النورسي** قائلا :

"اعلم! أيها السعيد المجنون المحزون !إن مثلك كمثل صبي أبله قعد على ساحل البحر يبكي دائما لزوال الحبابات المتشمسة. كلما زال واحد بكى علـــيه ظنا منه انطفاء الشميسة المتبسمة في الحباب بزوال الحباب وتحوله، وقـــد يـــبكي لتكدر ما في الحباب وتشوهه باختلاط مواد كثيفة به، ولا يرفع رأسه حتى يتفطن لتنـــزه الذات – التي هذه التماثيل جلوات أنوارها المتحددة على وجه البحر وخدود الأمواج وعيون القطرات – عن الزوال بزوال مرايا تجلياته، بل ليس في ما ترى زوال مؤلم ولا فراق أليم.

أمــا الجمال بمحاسنه وحلواته فثابت بكمال حشمته في تجدد شؤونه وتعدد مراياه.

وأمــا المرايا والمظاهر فتظهر لوظيفتها وهي راقصة، فإذا تمت الوظيفة استترت وهي ضاحكة.

كذلــك أنت، قاعد على ساحل بحر الدنيا تتألم باكيا على أفول ذوي الكمــال والجمال والحسن، وعلى زوال ثمرات النعم عند انقضاء أوانها، تــزعم بالغفلــة أن الجمــال ملك ذي الجمال والثمرات مال الشجرة، وتغتصــبهما منهما عاصفات التصادفات فتلقيهما في ظلمات العدمات. أفلا تعقل ان من نور ما تحبه بنور الحسن هو الذي نور كل ازاهير بستان الكائنات وشوق عليها قلوب البلابل العاشقين.

إلى كم تبكي أيها المسكين على زوال ما في يدك من الثمرة! فانظر إلى تواتــر نعم فالق الحب والنوى في إبقاء شجرة تلك الثمرة.. ثم إلى دائرة انعاماته في أقطار الأرض من أمثال تلك الشجرة إن عقمت.. ثم إلى دائرة تجدد احساناته في تجدد الفصول والسنين أن صارت سنتك شهباء.. ثم إلى دائرة إدامة إحسانه حتى في عالم المثال والبرزخ بأمثال ما شاهدت في عالم الشــهادة.. ثم إلى دائرة انعاماته الواسعة الأبدية في عالم الآخرة بأشباه ما استأنســت بــه في حديقة الأرض، ثم.. و.. ثم.. وهكذا! فلا تنظر إلى الــنعمة بالغفلــة عن الإنعام حتى تحتاج إلى التشفي بالبكاء، بل انظر من الــنعمة إلى الإنعــام ودوامه، ومن الإنعام إلى المنعم ووسعة فيضه وكمال رحمته، فاضحك شاكرا له، وبفضله فافرح.

وحــتى متى تدمع عينك ويجزع قلبك على فراق جمال زال! فانظر إلى

كـــثرة ووسعة الدوائر المتداخلة المحيطة بما تحبه تنسيك ألم فراقه بإذاقة لذة تجدد أمثاله وترادف أشكاله. وتلك الدوائر المتفاوتة صغرا وكبرا إلى اصغر مـــن خـــاتمك واكبر من منطقة البروج، وزوالا وبقاء إلى آن ودقيقة والى دهر وأبد؛ مظاهر ومرايا ومعاكس ومجاري لجلوات ظلال أنوار جمال ذي الجـــلال والإكـــرام الأزلي الأبـــدي السرمدي القيوم الباقي المقدس عن الحـــدوث والـــزوال المنـــزه عن التغير والتبدل. فلا تظنن أن ما في المرآة ملـــك لـــلمرآة، كي لا تبكي على ما في المرآة بموتها وانكسارها، فارفع رأســـك عن الدنيا بخفضه إلى منظار قلبك لترى شمس الجمال، فتعلم أن كـــل ما رأيت وأحببت إنما هو من آياته نعم.. ومن آيات جماله أن زين الســـماء بمصـــابيحها والأرض بازاهيرهـــا.. ومن آيات حسنه أن خلق الإنســـان في احسن تقويم.. وان كتب العالم في أبدع ترقيم.. ومن آيات جمالـــه أن اشرق أرواح الأنبياء ونور أسرار الأولياء وزين قلوب العارفين بأنوار جماله المجرد. جل جلاله".[49]

٢٨ – لمعة في تعريف القرآن

في تعريفه للقرآن الكريم يقول النورسي:

(فإن قلت : القرآن ما هو؟

قيل لك: هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات، والترجمان الأبدي لألسنتها التالـــية للآيـــات التكوينـــية، ومفسر كتاب العالم.. وكذا هو كشاف

(٤٩) المثنوي العربي للنوري ص ٢٨٨-٢٨٩ .

لمخفـيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض.. وكذا هو مفتاح لحقائق الشؤون المضمرة في سطور الحادثات.. وكذا هو لسان الغيـب في عالم الشهادة.. وكذا هو خزينة المخاطبات الأزلية السبحانية والالـتفاتات الأبديـة الرحمانية.. و كذا هو أساس وهندسة وشمس لهذا العـالم المعنوي الإسلامي.. وكذا هو خريطة للعالم الأخروي.. وكذا هو القـول الشـارح والتفسير الواضح، والبرهان القاطع والترجمان الساطع لـذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه... وكذا هو مرب للعالم الإنساني، وكالماء والضياء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية... وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد المهدي إلى ما خلق البشر لـه... وكذا هو للإنسان: كما أنه كتاب شريعة كذلك هو كتاب حكمة، وكما أنه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة، وكما أنه كتاب ذكر كذلـك هو كتاب فكر، وكما أنه كتاب واحد لكن فيه كتب كثيرة في مقابلـة جمـيع حاجـات الإنسان المعنوية، كذلك هو كمنـزل مقدس مشحون بالكتب والرسائل. حتى أنه قد أبرز لمشرب كل واحد من أهل المشـارب المخـتلفة، ولمسـلك كل واحد من أهل المسالك المتباينة من الأولياء والصديقين ومن العرفاء والمحققين رسالة لائقة لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره حتى كأنه مجموعة رسائل) [٥٠]

(٥٠) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز – النورسي– تحقيق إحسان قاسم الصالحي ص ٢٢ .

٢٩- الكلمة القرآنية

في "الكـــلمة القرآنـــية" تطالعنا ينابيع غزيرة من المعاني، وتبهرنا درر خبيـــئة من الأفكار والحكم، وتسحرنا رياض خضراء، وحدائق غناء من أزاهير الحياة والوجود.

وحين نضع أناملنا على نبض "الكلمة القرآنية" نلمس في صدى نبضها نبضـــات الكـــون، ونحس في توهجها توهج الأرض والسماء ونبصر في ضـــوئها أضـــواء الشـــموس والأقمـــار، ونشاهد في تألقها تألق النجوم والكواكـــب، وهي تعطينا من هذا كله على قدر عقولنا، ورهافة حسنا، وعمق نظرتنا، وشموس معرفتنا.

فكـــلما كنا أقدر على الغوص، وأكثر سبرا للأغوار، و أوسع استشرافا للآفـــاق والأمداء زادتنا، -الكلمة القرآنية- عطاء وفتحت أمامنا الكثير من مغالـــيق أسرارها، ومخابئ كنوزها، وما توحيه كلمة -أية كلمة- من معان وأفكـــار، ومشـــاعر وأحاسيس في ديوان شاعر، أو في كتاب ناثر، ليست سواء مع ما توحيه الكلمة نفسها عندما ترد في كتاب الله.

ففي كتاب الله تأخذ "الكلمة" معاني أعماق وأوسع، وتحتل من النفس الإنســـانية مساحات أعظم وأشمل، وذلك لكونها تتحول في "كتاب الله" إلى كـــيان حي يموج بتلك الحياة المرتبطة بالأزل والأبد، هذا الأبد "غير الزماني" الذي تصب فيه أفكار الماضي والحاضر والمستقبل.

"فالكلمة" تحيا في أجواء الآية، وتتفاعل معها أخذا وعطاء، والآية ترتع في ربيع السورة وتستروح في ظلالها، وتنهل من نبعها، وتقبس من نورها،

والسورة تتنزل من روح القرآن ومعانية مضمخة بنوره وعطره، والقرآن كلام الله الحي الذي يستمد وجوده وحياته من وجود "واجب الوجود" ومن حياة "الحي" الذي لا يموت، فلا غرو - وهذا شأن القرآن - أن يقال: أن القرآن يفسر بعضه بعضا، ويضيء بعضه بعضا.

فكلام القرآن يتمخض في حس "النورسي" وفي وجدانه عن عالم غريب جميل من الصور والأخيلة التي تأخذ طرقها إلى قنوات حسه وشعوره، وسرعان ما يتناولها شعوره المرهف، وذوقه المصفى، وفهمه الشمولي، ليشيد منها صروحا شامخة مبتكرة في أدب القرآن، وأسلوب تعامله مع "الكلمة" ومنهج عرضه وطريقة مخاطبته للإنسان.

ويسرنا أن نعرض هنا بعضا مما كتبه "النورسي" نصا في "الكلمة القرآنية" فيما تناوله من تفسير لبعض من آيات القرآن الكريم.

يقول "النورسي"

حتى أن "العين" التي معناها الواحد: البصر أو المنهل، يطلق على الشمس أيضا، بالرنو إلى أن العالم العلوي ينظر إلى العالم السفلي بها. أو أن ماء الحياة الذي هو الضياء يسيل من ذلك المنبع في الجبل الأبيض المشرف على الكائنات وقس[٥١] على ذلك.

* * *

أما (صم بكم عمي فهم لا يرجعون) (البقرة:١٨)

(٥١) الجبل الأبيض يقصد به الشمس التي تبدو كجبل أبيض في وسط السماء.

فاعلم: أن الإنسان إذا وقع في مثل هذا البلاء -قد يتسلى ويأمل- ويرجو النجاة من جهات أربع مترتبة:

فأولا: يرجو أن يسمع أصوات تناجى الناس في القرى المجاورة أو من عابري السبيل حتى إذا طلب العون والمدد أمدوه، ولما كانت الليلة ساكنة بكماء استوى هو و "الأصم" فقال: "صم" لقطع هذا الرجاء.

وثانيا: يأمل أنه إن نادى أو استغاث، يحتمل أن يسمع أحد فيغيثه، ولما كانت الليلة صماء، كان ذو اللسان والأبكم سواء، فقال: " بكم " لإلقامهم الحجر يقطع هذا الرجاء أيضا.

وثالثا: يأمل الخلاص برؤية علامة أو نار أو نير[٥٢]، يشير إلى هدف القصد، ولما كانت الليلة دامسة رمداء عبوسا عمياء، كان ذو البصر والأعمى واحدا فقال "عمي" لإطفاء هذا الأمل أيضا.

رابعا: لا يبقى له إلا أن يجتهد في الرجوع، ولما أحاطت به الظلمة، كان كمن دخل في وحل باختياره وامتنع عليه الخروج.

نعم وكم من أمر تذهب إليه باختيارك، ثم يسلب عنك الاختيار في الرجوع عنه. تخليه أنت ولا يخليك هو.

فقال تعالى: "فهم لا يرجعون" لسد هذا الباب عليهم وقطع آخر الحبل الذي يستمسكون به، فسقطعوا في ظلمات اليأس، والتوحش، والسكون والخوف.

* * *

(٥٢) أي جسم منير أو نير.

وأما آية: (وينـــزل من السماء من جبال فيها من برد)(النور:٤٣)

فاعـــلم: أن الجمود على الظاهر في هذه الآية مع توقد الاستعارة فيها، جمـــود بارد، وجمود ظاهر إذ كما تتضمن (قوارير من فضة) (الإنسان:١٦) إســـتعارة بديعـــة، كذلك تحتوي: (من جبال فيها من برد) على استعارة بديعة عجيبة مستملحة.

فكمـــا أن كـــؤوس الجنة لم تكن من الزجاج ولا من الفضة، بل في شـــفافية الـــزجاج، وبياض الفضة، ومن حيث أن الزجاجة لا تكون من الفضة لتخالف النوعين، أشار إلى الاستعارة بذكر "من" بالإضافة كذلك (من جبال فيها من برد) متضمنة لاستعارتين مؤسستين على خيال شعري بالنظر إلى السامع:

وذلك الخيال مبني على ملاحظة المشابهة والمماثلة بين "العالم العلوي" وتشكل "العالم السفلي" وتلك الملاحظة مبنية على تصور المسابقة والرقابة بين الأرض والجو في لبس الصور من يد القدرة.

كـــأن الأرض لما برزت بجبالها اللابسة للبيض من حلل الثلج والبرد في الشـــتاء، ومـــتعممة بها في الربيع، ثم تزينت في الصيف ببساتينها المتلونة، فأظهرت في نظر الحكمة - بانقلاباتها، (معجزة القدرة الإلهية) قابلها جو الســـماء محاكـــيا لهـــا، مسابقا معها لإظهار(معجزة العظمة الإلهية) فبرز متـــبرقعا ومـــتعمما بالسحاب المتقطع جبالا، وأوطادا وأودية، والمتلونة بـــألوان مخـــتلفة مصورة لبساتين الأرض، ملوحا ذلك الجو بأجلى دلائل العظمة وأجلها.

فبناء على هذه الرؤية والمشابهة والتوهم الخيالي استحسن تشبيه السحاب- ولا سيما الصيفي منه - بالجبال، والسفن والبساتين والأودية وقوافل الإبل - كما تسمع من العرب في كلامهم - فيخيل إلى نظر البلاغة : أن قطعات السحاب الصيفي سيارة وسياحة في الجو، وكأن الرعد راعيها وحاديها، كلما هز عصا برقه على رؤوسهم في البحر المحيط الهوائي اهتزت تلك القطعات وارتحت وتراءت جبالا صادفت الحشر، أو سفنا تلعب بها يد العاصفة، أو بساتين ترجحها من تحتها الزلزلة، أو قافلة شردت من هجوم قطاع الطرق، ومع ذلك يسيرون ويحرون بأمر الخالق.

ولما ناداها الرعد - كالبوق المعروف في المعسكرات - (حي على الاجتماع والاتحاد) تسارعوا من منازلهم مهطعين إلى راعيهم فيحشرون سحابا، ثم بعد إيفاء الوظيفة حقها وتلقي الأمر بالاستراحة، يطير كل إلى وكره.

فبناء على هذه المناسبة الخيالية، وعلى المجاورة بين السحاب والجبال:

إذ الجبل - بعامل البرودة والرطوبة - يتظاهر ويتشكل السحاب عليه بمقداره، ويلبس لباسه، وعلى وجود الأخوة بينهما ومبادلة الصور واللباس لكليهما، في كثير من مواضع القرآن، ومصافحتهما في منازل التنزيل، كمحاورتهما وتعانقهما في كثير من سطور صحيفة الأرض في كتاب العالم، فترى السحاب متوضعا على الجبل، ويصير الجبل كأنه مرسى سفن السحاب ترسو عليه أو مجلس تتشاور عليه أو وكر تطير إليه استحقا

بحكـــم المجاورة – في نظر البلاغة أن يتبادلا ويستعيرا لوازمهما فيعبر عن "السحاب" بـــ "الجبل" مع تناسي التشبيه.

فإذا عرفت ما سمعت من المناسبات،

و (ينـــزل من السماء) أي من جهة السماء.

(من جبال فيها) أي من سحاب كالجبال.

(من برد) أي من مطر كالبرد في لونه و رطوبته وبرودته.[٥٣]

٣٠– فلسفة الصلاة والزمن

الزمن نفسه، أسحاره وأصباحه، وضحاه وظهيرته، وأصائله وأماسيه، عشـــاؤه وليله، هذه الأوقات رموز ومعان لكل مرحلة من مراحل عمر الإنســـان، منذ أن تدب الحياة فيه وهو في رحم الأم وحتى يعود في خاتمة المطـــاف إلى رحم الأرض أمه الثانية الأخرى.. فهذه الأوقات هي أصداء الـــزمن الذي يصرخ بالإنسان منبها وموقظا، وهي همساته في أذن الروح كلما انتابها كسل أو فتور، ولذلك فرض الله سبحانه وتعالى الصلوات – التي تمثل قمة الصحو واليقظة في هذه الأوقات: (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون) (الروم:١٧).

---

(٥٣) أنظر إشارات الأعجاز في مظان الإيجاز ص١١٣ وما بعدها . وانظر كذلك / سعيد النورسي رجل الإيمان ص ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧.

فعالمـــنا في إطـــار الأكـــوان ساعة إلهية كبرى، عقرب ثوانيها الليل والـــنهار، وضـــابط دقائقها السنون والأعوام، وحاسب ساعاتها القرون والأزمـــان، وكل ميل أو عقرب فيها - كساعة الإنسان اليدوية - يناظر الآخر ويرتبط به، ويتحرك بحركته، ويأخذ حكمه .

والديـــن لكـــي يربطنا إلى هذه الساعة الكبرى، ويلفت انتباهنا إليها، ويجعلـــنا متيقظين لحركتها لا نغفل ولا نسهو، فرض لنا ضمن كل وقت مـــن أوقاتهـــا، وموسم من مواسمها نوعا من أنواع العبادات، وشكلا من أشـــكال التقرب إلى الله، فالصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها الكثير من فروض الطاعات ومندوبات الأعمال لها- ضمن هذه الساعة الكبرى - وقتها المعلوم وزمنها المخصوص.

يقـــول "النورسي" في حكمة الصلاة في أوقاتها المعلومة: تسألني - أيها الأخ - عـــن حكمـــة تخصـــيص هذه الأوقات الخمسة المعينة بالصلاة، وسأشير إلى حكمة واحدة فقط من بين حكمها الكثيرة:

١- وقت الفجر إلى طلوع الشمس:

يشـــبه هـــذا الوقت في ندلوته ورقة أنسامه، وعطر أنفاسه، باكورة الربيع وخضـــرة أيامـــه، وتفـــتح أزاهيره وأوراده، كما أن هطول نور الفجر الهادئ الأنوس على الأرض يشير إلى أول نـــزول الروح الإنساني في رحم الأم، بداية خلقـــه، ولأنـــه الخيط الأول من نهار جديد فهو يثير في النفس معنى اللحظات الأولى من اليوم الأول من الأيام الستة في خلق السماوات والأرض.

كل هذه الخواطر والأفكار ينبغي أن تنبعث في نفس المؤمن مرة واحدة وهــو يستقبل فجر يوم جديد، فيقوم إلى الصلاة متضرعا طارقا باستحياء بــاب رحمة القدير ذي الجلال ومتمرغا على أعتاب الرحيم ذي الجمال، عارضـــا افـــتقاره عليه طالبا العون والتوفيق منه سبحانه، فهذه الصلاة في باكورة يوم المؤمن الجديد هي ركيزة ثابتة يرتكز إليها، وسند يستند إليه، و مشد يشد ظهره ليقوى على تحمل ما يواجهه به يومه من أثقال الحياة، ومتاعـــب العيش في غضون النهار . أليس – أيها الأخ – في اختيار هذه الوقت للصلاة حكمة عظيمة ما بعدها حكمة..؟!

٢ – وقت الظهر:

الظهر صيف يومه، وشباب نهاره، وعنفوان استوائه، وهو يومئ بشدة ضـــيائه، ووضوح أنواره، إلى ما في الروح الإنساني النازل إلى الدنيا من أنـــوار إلهـــية بكر لم تتلوث بعد بدخان الآثام، ولا ظلمات الذنوب ومع بلـــوغ الـــنهار ذروتـــه وميلانه قليلا إلى الزوال، تتكامل أو تكاد أعمال الإنســـان اليومـــية، حيث يشعر بعدها بحاجته إلى فترة استرخاء نفسي، ويحـــس بحاجة الروح اللاهفة إلى التنفس والاسترواح، وافتقارها بعد هذا الانغمـــار بالشـــوون الدنـــيوية الفانية و ما تورثه – أحيانا – من غفلة واضـــطراب وحيرة – إلى الانفلات من هذا كله، والتوجه بإشراقها إلى ينابيع الخلود وعوالم البقاء.

فخـــلاص روح الإنسان من تلك الأثقال، وانسلالها من بين سحب الغفلة والحيرة، وخروجها من تحت زبد التوافه والأباطيل، في هذا الوقت من النهار، لا يتم إلا بالتجاء الإنسان وهروبه إلى باب الحي القيوم الباقي

بتضـــرع الملتاع وتوسل الملهوف، فيقف بين يدي الله سبحانه وتعالى في صلاة الظهر مكتوف اليدين، واجف القلب، شاكرا حامدا لآلائه وأنعمه، متبرئا من حوله وقوته، مستعينا به وحده، مظهرا - بركوعه - عجزه إزاء جلالـــه وكـــبريائه وعظمته، معلنا - بسجوده ذله وخضوعه تجاه كماله الذي لا يزول، ومسبحا بحمد جماله الذي لا مثيل له ولا شبيه.

فمـــا أشـــد حاجة الإنسان في هذا الوقت إلى هذه الصلاة التي تنعش روحـــه، وتذكـــر قلبه، وتوقظ وجدانه، أفلا ترى معي - يا أخي - أن الصـــلاة هـــنا ضرورة من أعظم الضرورات في الإبقاء على يقظة الإيمان وحيويته في النفوس؟

٣-وقت العصر:

ويـــأتي العصر منسابا بهدواته الهادئة، ولحظات سكينته الحالمة، طاويا أســـاه العذب سر الآلام الإنسانية الكبرى، وماسحا بيده أوجاع القلب البشري المتعب في حومة الكفاح - من أجل بقائه نقيا طاهرا - ضد قوى الشر في خفايا الضمير، وخبايا الوجدان، هذا الكفاح المرير الذي لا يعلم سره إلا الله سبحانه وتعالى.

ووقـــت العصر هو خريف اليوم المثقل بثمار الأعمال، جيدها ورديئها وكهولـــة النهار المدلفة بهدوء إلى شتاء العمر، وهو يشير - بانحدار شمسه نحـــو المغيـــب - إلى الحزن الوقور الآتي مع شيخوخة الإنسان والقادم في صحبة الجسد المهزوز العاجز الضعيف الذي يقول لسان حاله: انظروا - أيها السادة - كل شيء يحول ويزول، ويمضي إلى عوالم الغيب، وينحدر إلى ما وراء الشهود...

وهنا ينتفض الروح الرافض المتمرد على الفناء، الساعي إلى الخلود، التواق إلى الأبدية، ولأنه مخلوق لهما فهو يعشق الثبات والبقاء، ويتألم من الزوال والفناء، فيتحرك في المؤمن مهيبا به أن يقوم إلى ضفاف الأبدية، وبحار السرمدية . ويلتمس البقاء من الباقي، ويحتمي من الفناء بالحي القيوم الذي يقول: (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) (الرحمن:٢٧) فيؤدي صلاته مستحضرا في ذهنه هذه المعاني التي تنسج لروحه في كل ركعة وسجدة ثوب بقائه ورداء خلوده...

ألا ترى - أيها الأخ الحبيب - بعد هذا الذي ذكرناه، كم هي صلاة العصر مناسبة لوقتها، وكم هي ضرورية في أوانها..؟!

٤- وقت المغرب

الشمس الصفراء الشاحبة تنحدر على مهل نحو المغيب، مخلفة وراءها ظلالا باهتة، وأشباحا ناحلة من صور الأشياء والمرئيات.

كما تغيب الشمس - هذا الجرم السماوي الكبير الممتلئ بالحيوية والنشاط - يغيب الإنسان- هذا الجرم الأرضي العظيم - كذلك عندما يحين أجله، وتدق ساعة مغيبه، وهو لا يترك وراءه سوى أطياف ذكريات، وبقايا صور في ذاكرة أهله ومعارفه .

ويغرق الليل الدنيا، ويغمرها بالظلام كل مساء وكأنه - وهو الليل الأصغر - يريد أن يذكرها فلا تنسى أبدا ذلك الليل الأكبر القادم في يوم ما ليلفها في يمه ويطويها بما فيها ومن فيها بلجته...

ويهمس المساء ناصحا في أذن الإنسان:

أتــرى – أيها الإنسان – كيف يغرق غائصا في ظلمة الليل كل شيء تحـــبه وتـــتعلق به، ألا تراه كيف ينفلت من بين يديك، وينسل من بين ناظريك، منطويا تحت جناحه، وضائعا في ثنايا موجه..؟

فلا تغتر بما تجد، ولا تفرح بما تكسب، فلا دوام لمطلوبات الدنيا، ولا بقـــاء لمحبوبات الحياة، فإياك والتعلق بما يمكن أن تفارقه أو يفارقك، وإياك والتشبث بالزائلات الفانيات من الأشياء.. بل تعلق بالباقي تبق.. وتشبث بالخالد تخلد.. وأحب الحي القيوم تحيا.. وتشوق إلى الرحمن الرحيم ترحم وفي الظلمات استقبل قبلتك.. وأد صلاتك تتنور وتتضوأ مهما اشتد ظلام الدنـــيا حولك أو اشتدت عتمة قبرك.. هذا هو معنى الصلاة ومغزاها في مستهل هذا الانقلاب الزماني الكبير، وفي أوان هذا الإدلاج من عالم النور إلى عـــالم الظـــلام.. فمـــا أعظم – يا أخي حكمة فرض الصلاة في هذا الوقـــت، ومـــا أجمـــل ما تؤديه للإنسان في هذا الأوان من أمن وسكينة واطمئنان...

٥– وقت العشاء:

ويـــأتي العشـــاء هـــذا الشتاء الليلي الذي يتغشى بكفنه الأسود وجه الأرض الميتة معلنا بذلك عن موت يوم آخر من أيام الدنيا، ومضيه مثقلا بأعمال البشر بكل خيرها شرها إلى حافظه الزمن، وعقله الدقيق الذي لا يفوتـــه تســـجيل كل صغيرة وكبيرة وحفظها إلى اليوم الموعود .. هكذا تمضي صحيفة النهار البيضاء تجرر بقايا نورها، وتختفي وراء أفق السماء، وتنشـــر صـــحيفة الليـــل السوداء مذكرة الإنسان –الذي كثيرا ما تنتابه الغفلـــة– بقدرة "مقلب الليل والنهار" و"مسخر الشمس والقمر" كما هو

شـــأنه – جل شانه – عندما يطوي بساط الربيع الأخضر من فوق سطح الأرض ويستبدل به ذلك البساط البارد المثلج الأبيض أيام الشتاء المقرور.

فالجمع – في الخلق – بين المتناقضات، بياض النهار وسواد الليل، حر الصـــيف وقر الشتاء، حياة المخلوقات وموهما، من عمل واحد أحد، فرد صمد لا حد لقدرته ولانماية لإبداعات صنعته.

وســـجو الليل وصمت سكينته، وهدوات أنفاسه، يقربنا من حافات ذلك العالم الصامت الذي يثوي الأموات في صمته، ويجعلنا نسمع طرقات البـــلى، ومعاول الفناء على أسوار الدنيا وجدران العالم، حتى ليدوي في أسماعـــنا طـــنين الهـــلاك، ونحس في أرواحنا عويل الدمار وأنين الانهيار، ونصغي بقلوب واجفة إلى ذلك النداء الأزلي: (لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار) (غافر:١٦) المالك الحقيقي المتصرف الحقيقي بهذا الكون، بل المعبود الحقـــيقي، والمحـــبوب الحقـــيقي فيه الذي يقلب الليل والنهار، والشتاء والصـــيف والدنيا والآخرة، كما يقلب أي إنسان – ولله المثل الأعلى – صـــفحات كتابه، أو يطوي سجلات كتبه، فيتجلى عجزنا، ويبين فقرنا، وتتكشـــف حاجتنا إلى من بيده إنقاذنا من ظلمات المستقبل، وليل العالم الكبير، القادم قدوم كل ليل في آخرة النهار، فيفزع المؤمن في هذا الوقت إلى الصلاة ويردد مع سيدنا إبراهيم عليه السلام (لا أحب الآفلين) (الأنعام: ٧٦)، ويـــتقرب بصلاته إلى باب من هو المعبود الذي كان وما يزال، ومن هو المحبوب في كل وقت وأوان، مناجيا الباقي السرمدي بعد خلعه للدنيا الفانـــية، وطرحه لهذا العالم المائل للانهيار في كل لحظة وراء ظهره خارجا بذلك من ظلمة دنياه، من خلال صحبة خاطفة، ومناجاة موقتة، مقتبسا

النور الذي يضيء حياته، وملتمسا المرهم الذي يضمد به جراح قلبه النازفة علـــى مـــن زال من أحبائه وفراق من فارق من إخوانه ومعارفه، ساكبا عـــبرات قلبه، ولوعات صدره على عتبة باب تلك الرحمة، قائما بوظيفة العـــبودية في خاتمة يومه قبل أن يخلد إلى النوم، موته الأصغر الذي يجر به كل ليلة، والذي لا يدري ما سيؤول أمره فيه عندما يغمض عينيه، ويعقد الكـــرى أجفانـــه.. فتـــتهاوى عند أبواب النفس كل محبوباته الدنيوية، وتـــذوب في حـــرارة صلاته كل أهوائه ورغائبه الزائلة الفانية، ويتلاشى خوفه ويزول ذله، ويتحول الصغار في روحه إزاء السادة الدنيويين إلى عز شـــامخ، وإبـــاء رفـــيع، لأنه واقف أمام من هو القديم الكريم، وماثل في حضرة من هو الحفيظ الرحيم.

فيفتـــتح صلاته بالثناء على رب العالمين الكريم الرحيم، الكامل المطلق الكمال، الغني المطلق الغني، فيرقى إلى مقام الضيف المكرم في هذا الكون، والى مقام الموظف المرموق فيه، رغم ضعفه وفقره وعجزه، لأنه قد سما إلى مرتـــبة الخطاب: (إياك نعبد) فينتسب بذلك لمالك يوم الدين، ولسلطان الأزل والأبـــد. فيقدم بين يدي الله بقوله: (إياك نعبد) و (إياك نستعين) عبادات واستعانات الجماعة الكبرى، والمجتمع الأعظم لجميع المخلوقات، طالـــبا له ولهم الهداية إلى الصراط المستقيم الذي هو طريقه المنور الموصل إلى الســـعادة الأبدية بقوله: (اهدنا الصراط المستقيم) ويتفكر ويتأمل في كبريائه وعظمته سبحانه وتعالى الذي ما هذه الشموس المستنيرة، وما هذه الـــنجوم المتلألئة إلا جنود مجندة لأمره جل وعلا، وإن كل واحد منها ما

هـــو إلا مصباح في دار ضيافته هذه، وخادم له مطيع لأمره، فيكبر عندئذ قائلا: (الله أكبر) ثم يهوى راكعا.

وإذا كانـــت الأكوان والعوالم، وإذا كانت السماوات والأرضين، وما فيهن ومن فيهن ما فتئوا ساجدين سجدتهم الكبرى، مسبحين تسبيحاتهم العظمى، فما أجمل أن يأخذ الإنسان أيضا مكانه في صف الساجدين على سجادة الغروب المبسوطة بين أقطار السماوات والأرض، مكبرا مع تكبيرة الوجـــود لينال أجر صلاة الجماعة الكونية العظمى، ويحصل على شرف العبودية الممتثلة لأوامر مولاها.

فصـــلاة "العشاء" بهذا المعنى، وبهذا الفهم الشامل هي معراج المؤمن، والتي يسمو بها، ويشاهد من عليائها آيات الله وأنعمه وآلاءه.

تلـــك - يـــا أخـــي - هي حكمة الصلاة في هذه الأوقات التي هي مـــنعطفات يومـــية، وانقلابات زمانية، لكل وقت وزمان منها نوع من أنـــواع فيوضـــات الرحمة الإلهية، ولون من ألوان تجليات الأسماء الحسنى. فيبادر إليها المؤمن بصلاته حتى لا تخطئه بركاتها، ولا تفوته رحماتها.(٥٤)

٣١- الإنسان ثمرة الأزمان

في البذرة ينطوي ماضي الشجرة ومستقبلها. وعندما تورق شجرة ما وتتفتح أزاهيرها، وتنضج بعد ذلك ثمارها، فأن هذه الثمار ينبغي أن تتقدم بشكرها للبذرة نفسها، وللجذر الممتد عميقا في باطن الأرض، وللجذع

---

(٥٤) الكلمات - النورسي ص ٣٨- ٤٦ أنظر "رجل الإيمان" الصفحات ١٠٦- ١١٣.

الــذي حمل الأغصان، ومر من خلاله الماء والغذاء من باطن الأرض لكل ورقة وزهرة وثمرة.

أما إذا ركب هذه الثمار الغرور، وأصابها العجب، وتعالت شامخة على أغصانها وتشبثت بحاضرها، وتنكرت لماضيها، وتناست أصلها، وظنت – في غمــرة خيلائها – أنها في غنى عن غذاء جذورها وحمائر جذعها فأنها تكــون بذلك قد خانت نفسها، واخترمت حياتها، وأوردت ذاتها موارد الموت والهلاك.

الإنســـان أيضـــا هو أنفس ثمار الوجود، وأجمل أزهار الكون، وأكثر أشـــجار الأرض طيـــبة، ورسوخا وجمالا وظلا، تخضر الأرض باخضرار نفسه، ويخضل العالم باخضلال روحه، ويندى الوجود بأنداء قلبه، وتتفيأ الشمس نفسها بوارف ظله.

هـــذا هـــو الإنســـان الكامل العارف الجامع – في لمحة – بين ماضيه وحاضـــره ومستقبله، والنافذ ببصيرته إلى جذوره وأصوله الموغلة في القدم .. والعـــالم بأنـــه بالمشيئة قدم العالم، وبالقدرة نـــزل الأرض، ومن الحي أســـتمد الحياة، ومن الخالق أستوهب خلقه، وقام يدب على الأرض بشرا ســـويا، وهو بالبصيرة نفسها يطل على مشارف الأبد، ويرنو إلى ضفاف الخلـــود، ويهفو باشتياق إلى عالم البقاء، وهو على ثقة ويقين بأنه بالباقي سيبقى، وبالخالد سيخلد، ومن الأبدي سينال الأبد، ويحصل على الخلود.

فهـــذه النظرة الشمولية الجامعة –عند الإنسان المؤمن– هي التي تعطي ســـلوكيته في الـــتعامل مع الآخرين روحا نابضا بالحياة. وحسا مرهفا لا

تحكمه ضرورات الأزمنة والأمكنة، ولا تفرضه المصالح والمنافع الضيقة المحدودة.

فهو حين يصدق مثلا لا يصدق بدافع الضرورة، ولكنه يصدق لأنه يجد في الصدق جمالا تهفو إليه النفوس، ويسعى إليه الوجدان، ويطلبه الصدق الأعظم الذي به قام الوجود، وعليه رست السماوات والأرض، وهو حين يحب، لا يحب لغرض، ولا يصطفي لمنفعة، ولكنه يحب لأن الحب هو الدم الذي يغذو عروق العوالم والأكوان، ويمد قلب الوجود بدفقات الحياة، ويمنح الزهرة سر الجمال، والفراشة سحر الألوان، والبلبل عذوبة التغريد، ويهدي القمر نوره الأنوس، والشفق الأحمر حمرته، الهادئة، والفجر أنفاسه الندية، والجدول خريره الحزين، والقلب الإنساني جمال الشجن، والروح أسى الحنين إلى عالم الحب والجمال والخلود في رحاب الآخرة ومنازل الجنة. والى أمثال هذه المعاني يشير "النورسي" قائلا:

(أما الإنسان المنحصر في حلقة واحدة من حلقات الزمن، وفي دائرة واحدة من دوائره وهي دائرة الحاضر، المنقطع عن الماضي والمبتوت الصلة بالمستقبل، فسوف تضيق نفسه بضيق زمانه، وتتحدد آفاق نظرته، ويدخل مرغما في عنق الزجاجة الزمنية الضيقة الخانقة التي تسد منافذ المروءات في نفسه، وتوصد أبواب المكرمات في وجدانه، وتتحول سجاياه الإنسانية الموروثة والتي لا تعرف الحدود إلى سجايا نفعية، وأخلاق انتهازية متلونة، يعامل من خلالها الناس الذين يعاصرهم ويعايشهم وكأنهم كائنات زمانية محدودة بحدود هذا الحاضر الذي يعايشونه، وكأنه لا

يعـــرف من أي ما ض تليد مفعم بالمكرمات قد أتوا، ولا إلى أي مستقبل ســـيلتقيهم في رحابه بعد انقضاء هذا الزمن الدنيوي مهما بدا طويلا في ظاهـــر أمـــره وعندما ينظر الإنسان المحصور في دائرة الحاضر هذه النظرة الكليلة القاصرة تتحول المحبة لديه والتي هي منبع كل الفضائل البشرية من كونهـــا عنصرا من عناصر امتداد الإنسان في الأشياء من حوله ونفاذه في الكائـــنات الحية وخلوده في البشرية التي سيلتقيها على أبواب الآخرة إلى مجـــرد عاطفـــة ضيقة يابسة توريها المصلحة وتلهبها المنفعة فتفقد بذلك حرارة الروح ونبض الوجدان ودفء القلب الذي يعطي عطاء من لا يريد جزاء ولا شكورا .

وحـــتى محبـــته لأبـــيه أو زوجته أو ولده أو أمه، تغدو محبة يكتنفها الجفاف، ويعتورها اليبس، لأنها لا ترتوي من ذلك الحنان الأصيل العميق الـــذي به ترقى المحبة إلى مرتبة الخلود، وترتفع إلى قمة الأبد، ولا يستطيع المـــوت نفسه أن ينال منها، لأن المحب قد أعطى من قلبه للخلود، ووهب للبقاء، ولم يعط من أجل لحظة عابرة، أو لمحة خاطفة، لذا كان المتحابون في الله – كما ورد الحديث الشريف – على منابر من نور يغبطهم عليها الأنبياء والصديقون والشهداء.

فالماضـــي والمستقبل هما عصوا الإنسان وعكازتاه اللتان يتوكأ عليهما في مسيره عبر شعاب الزمن ومنعطفات التاريخ، فعلى قدر استيعابه لماضيه وجذوره وأصوله وخلفيات تاريخه المتصلة بما (قبل الزمن) والمرتبطة بمشيئة الغيب وإرادة القدر الإلهي.. وعلى قدر وعيه وقدرته على التأمل المستقبلي

والاستحضار الدائم للحظات المآل والمصير والنفاذ ما وراء (الزمن) إلى حيث (الأبد) الذي سترسو سفينة الإنسان على ضفافه في خاتمة رحلته .

أقول: على قدر هذا الاستيعاب للماضي، والوعي للمستقبل والمصير، تكتسب مسيرة الإنسان في هذا العالم خطوها الرصين، ومسيرها الهادئ الموزون على الصراط الذي يجنب الإنسان الانحراف والضياع والشتات، ويمنحه النور الذي يبدد ضبابية الفهم وعشوائية التصرف والسلوك.

أما الإنسان الذي يحدد نفسه بـ(الحاضر)، وينغمس في لحظاته وساعاته، ويغرق في أمواجه ولججه، قاطعا بذلك صلته بجذور ماضيه، واضعا أصابعه في أذنيه حتى لا يسمع نداء المستقبل، وهتاف الآتي، ومستغشيا ثيابه حتى لا يبصر لمعات الخلود، وبوارق الأبد، فهو إنسان يثير الإشفاق لأنه قد اختار — دن مبرر — الكفر، وحكم على نفسه بالعذاب الأبدي في سجن الآخرة الرهيب)[٥٥].

٣٢ – نماذج أدبية من "النورسي"

أ– لا تشتت جنود صبرك:

العلم! أيها المصاب ببلية دامت من مدة!. لا توزع من جنود صبرك وقوته، في مقابلة ما مضى إلى يومك هذا، بل إلى ساعتك هذه؛ إذ التحقت تلك الأيام الأليمة الخالية إلى صف جنودك بانقلابها لذائذ معنوية وحسنات أخروية. وكذا لا توزع من صبرك في مقابلة ما يأتي بعد يومك

(٥٥) المصدر نفسه الصفحات ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧.

هذا، ، بل ساعتك هذه. اذ هو عدم ومعدوم وفي يد المشيئة. فاجمع جميع قـــوة صـــبرك وجنوده على هذا اليوم، وفي هذه الساعة، مع تقوي قوتك المعنوية بالتحاق جنود البلايا الأعداء إلى جنودك بانقلابها أحبابا ممدة، مع الاستمداد من التوكل على المالك الكريم الرحيم الحكيم في مقابلة ما يأتي. فإذا فعلت هكذا، يكفي اضعف صبرك لأعظم مصيبتك..)[٥٦].

ب – من أنت ؟!

"اعـــلم! انك صنعة شعورية بحكمة، حتى كأنك بوضوح الدلالة على صفات الصانع؛ مجسم الحكمة النقاشة، ومتجسد العلم المختار، ومنجمد القـــدرة البصـــيرة بمـــا يليق بك، وثمرة الرحمة السميعة لنداء حاجاتك، ومتصـــلب الفعـــل المـــريد لما يريده استعدادك، ومتكاثف الإنعام العليم بمطالبك، وصورة القدر المرسم المهندس الخبير بما يناسب بناءك.."[٥٧].

ج– قيودك:

"اعلم! انك مقيد بالتعين، في مقيد بالبدن، بمقيد بالعمر، محدود الحياة في محـــدود البقاء بمحدود الاقتدار. فحينئذ لابد أن لا تصرف هذا العمر القصير القليل الفاني للفاني حتى يفنى، بل للباقي ليبقى". [٥٨].

د – القطرات والبحور :

"اعلم! أيها الإنسان أمامك مسائل عظيمة هائلة، تجبر كل ذي شعور على الاهتمام بها!..

---

(٥٦) المثنوي العربي النوري – النورسي ص ٣٤٩ وانظر المختارات ص ٨٢ – ٨٣
٥٧ المثنوي العربي النوري – النورسي ص٢٩٩
(٥٨) المصدر نفسه ص ٣٠٠

منها "الموت" الذي هو فراقك عن كل محبوباتك من الدنيا وما فيها.

ومنها "السفر" إلى ابد الآباد في أهوال دهاشة.

ومنها "عجزك" الغير المعدود في "فقرك" الغير المحدود في سفرك الغير المحصور في عمر معدود محدود، وهكذا.

فما بالك تناسيت وتعاميت عنها -كطير الإبل - أي "النعامة" يخفي رأســه في الرمل، ويغمض عينه لئلا يراه الصياد.. إلى كم تهتم بالقطرات الزائلة، ولا تبالي بالبحور الدهاشة!!."(٥٩).

٣٣ - الخلاصة والخاتمة..!

كثير هم أولئك الذين يعرفون الاستاذ "النورسي" رائدا كبيرا من رواد العمـــل الإسلامي في تركيا الحديثة ١٢٩٣ - ١٣٧٩هـــ، إلا أن أعماله الأدبــية ما زالت مجهولة من قبل أغلب الأدباء والمثقفين والنقاد العرب، فشـــهرته كـــرائد إسلامي طاغية على شهرته كأديب على الرغم من أن معظـــم نـــتاجاته في الحقل الإيماني ذات نفس أدبي يبدو واضحا للقارئ المتمعن.

والمنطلق الذي ينطلق منه "النورسي" في أعماله الإيمانية والأدبية منطلق واحد، وهو "الإنسان" هذا المخلوق العجيب الذي خلقه الله تعالى لنفسه، وأراده مرآة يشاهد فيها عظمة قدرته، ودقة صنعته، وسخر لـــه الكون، ومـــنحه مـــن مطلق صفاته وأسمائه الحسنى نسبيات محدودة من الوجود

---

(٢) المصدر نفسه ص ٣٥٢

والحـياة والقـدرة والعلم والإرادة لكي يقيس ما عنده من نسبيات هذه الصـفات على ما عند الله تعالى من مطلقاتها. فيعرف ويشكر ويعبد كما يقول "النورسي"

فـتعريفه بكرامته ونفاسة وجوده، وعظمة رسالته في الحياة واستثارة قـواه الداخلسية، وطاقاته الكامنة، وأيقاظ لطائفة ووجدانياته ولم شتاته، وتجميع ما تفرق من قواه النفسية ثم حشدها ورصها في صف واحد قوي متماسك لمواجهة هجمات العدم الذي يسعى لتدمير روحه، وخنق أشواقه وتطلعاتـه الفطرية إلى البقاء والخلود، هو مجمل أفكار "النورسي" الأدبية والدينية.

ولعـل كتابه الأدبي العظيم "المثنوي العري النوري" هو خير ما يفصح عن هذه المقاصد والأهداف التي أعتمدها في كل كتاباته.

فهذا الكتاب درة من درر أدبه، وتحفة فنية من تحف فكره وقلبه، وهو لا يقل بأي حال من الأحوال –إن لم يرجح في جوانب منه على "مثنوي الـرومي" ولكـن لسوء حظ هذا الكتاب أنه لم يصبح معروفا لدى قراء العربية إلا قبل سنين عديدة، حيث أهتم به وحققه الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، غير أنه لم يزل ينتظر الناقد الذي يقدمه إلى قراء العربية ككتاب فذ في "أدب الإيمان" وبحاجة كذلك إلى المترجم الحاذق الذي ينكب على ترجمته إلى إحدى اللغات العالمية، وهو لو عرف بشكل جيد من قبل نقاد الغـرب لعـرفوا به، ولأشادوا به، ولشق طريقه ليحتل مكانة مرموقة إلى جانب أعظم الأعمال الأدبية العالمية.

لأن اهـــتمامات هـــذا الكـــتاب منصبة بالأساس على أوجاع القلب البشري، وآلام الروح الإنساني، وإشفاقهما من الفناء والعدم. فهو مكرس لمســـاعدة الإنسان على خلاصه من براثن العدم والهلاك الأبدي، وإنقاذه مـــن هجمات الفناء، والأخذ بيده إلى أبواب البقاء والخلود، وهذا هو ما يـــتوق إليه كل إنسان ويتطلع إليه حيثما كان في هذا العالم، وهذا هو ما ســـيجعله يتـــبوأ –في المستقبل القريب– مكانة عالية إلى جانب الأعمال الأدبية الخالدة.

و"المثـــنوي" ليس بمجرد جزالة في اللفظ، ولا براعة في الكلام، بل هو جـــزالة في المعنى يبهر الذهن، وجلال في الفكر تنحني له الهامات احتراما، وشـــرف في المقاصد والغايات تنجذب إليه النفوس العفيفة والشريفة، فقد أوتي صـــاحب "المثـــنوي" فضيلة الإتيان بكل جليل وجميل من الأفكار، وبكل شريف وطاهر من الأحاسيس والمشاعر، و لم يزل غراسه قادرا على أن يزكو ويعلو ويعطي ثماره في تربة الأذهان المتلقية، بل هو عنصر فكري مشـــع يؤثر في العقول، ويستولدها في كل مرة أنسالا جديدة مبتكرة من الأفكـــار، تـــزيد العقول اتساعا، وتشحذ قدراتها على التفكر والتأمل في عوالم الغيب والشهادة، وعوالم النفس الإنسانية والكونية على حد سواء.

* * *

والمفكرون من ذوي العقول الخصبة، والأرواح الكبيرة، يشكل عليهم أمر أنفسهم أحيانا، فيخالون أنفسهم طورا في أعلى قمة من قمم العطاء، وآنـــا في أســـفل دركـــات العجز والقنوط، وهذا الشعور كان ينتاب "النورســـي" بين الفينة والفينة وإذ لم يكن لديه ممتلكات دنيوية تشغله عن

رسالته، فهو كذلك ليس لـــه ممتلكات فكرية يباهي بها وينسبها لنفسه، لأنه يعزي أعماله الأدبية والإيمانية إلى الهامات القرآن، وأنه ليس أكثر من أداة مسخرة قد سخره القدر لخدمة المقاصد الإيمانية والقرآنية، وأنه أعجز مـــن أن يـــأتي بما أتى به لولا التأييد الرباني، والإلهام القرآني، حتى لكأن حشودا من الإلهامات الربانية تقطن عقله ووجدانه، وتوجه رغائبه، وتملي علـــيه خواطـــره وأفكاره وكثيرا ما ينتابه التوجس والقلق إذا ما اضطره ظرف ما أن يكون خارج عالمه الروحي، فهو لا يستطيع ولا يقوى على مغادرته إلى أي مكان آخر.

ولكـــي نفهم عظمة "النورسي" مع التواضع الجم، والإحساس بالعجز والافتقار، يحسن أن نقرأ الآتي بأمعان وتأمل حيث يقول:

(يـــا ناظرا أظنني أحفر بآثاري المشوشة عن أمر عظيم بنوع اضطرار مني. فيا ليت شعري هل كشفت.. أو سينكشف.. أو أنا وسيلة لتسهيل الطريق لكشافه الآتي.)[٦٠]

فهو يحفر بسنان قلمه في أغوار "النفس" وفي أطباق "ا لأكوان" مفتشا عـــن ذلـــك الأمر الخفي المكنون مدفوعا إلى ذلك بقوة قدرية قاهرة يجد نفسه ملزما بطاعتها والاستجابة لها.

وهذا الأمر العظيم إنما هو الكشف للأجيال عن السلك النوراني الممتد بـــين روح الإنسان وروح الله، وبين أشواق القلب البشري والحب الإلهي العظيم للإنسان اعظم مخلوقاته، وأنقاهم مرآة لجلوات أسمائه الحسنى.

(٦٠) المثنوي العربي النوري – النورسي ص٢٣٩ وانظر المختارات ص ١١٠.

ولكنه – أي "النورسي" – مشفق من أنه لم يستطع إنجاز هذه المهمة علـى الوجه المطلوب، غير أنه لا يتوقف لحظة عن البحث والتنقيب لعله إن فاتـه أن يكـون ذلك الكشاف الرائد، فلا أقل من أن يكون بآثاره الفكـرية، وسـيلة ممهدة في الطريق نفسها التي مضى هو فيها للآتين من بعـده، لـيحملوا عـلى عواتقهم المهمة نفسها لعلهم ينالون شرف هذا الكشف في الآتي من الأزمان.

* * *

وهـذا الكشـف العلوي لأعظم حقائق الوجود، والإمساك بطرف السـلك النوراني بين الخالق والمخلوق، والعبد والمعبود، احتاج إلى قوى روحـية محلقة، وعقل مجنح قادر على ملاحقة الروح في جولانه بمملكة المعـاني المجـردة، على الرغم من الانسحاق الذي أراد أعداء "النورسي" إلحاقـه بروحه تحت شتى صنوف الاضطهاد والسجن والنفي والتشريد، فـباءت محاولاتهم في كسر أجنحة روحه بالفشل، وإرهاق عقله، وإنهاك فكره بالإخفاق، فاستطاع متجاوزا جميع هذه العقبات والمعوقات أن يمنح تلامذتـه وقـراءه بصائر نافذة في ظلمات الطبيعة التي رشحت من قبل الكثير من مثقفي عصره كبديل عن ربوبية الرب، وخلاقية الخالق.

فقـارئ "النورسـي" يجد نفسه بغتة في صميم أحواله الروحية ممسكا بجوهرة الحياة الأبدية، التواق لبلوغها عند مغادرته لهذه الدنيا.

ولكـي نـلمس عـن كثب ما عاناه "النورسي" من آلام وأوجاع وعذابات لنقرأ ما كتبه هو عن نفسه حيث يقول:

(لم أذق طــوال عمــري البالغ نيفا وثمانين سنة شيئا من لذائذ الدنيا، قضــيت حياتي في ميادين الحرب، وزنــزانات الأسر، أو سجون الوطن، ومحــاكم الــبلاد، لم يبق صنف من الآلام والمصاعب لم أتجرعه، عوملت معاملــة المجرمين في المحاكم العسكرية العرفية، ونفيت وغربت في أرجاء البلاد كالمشردين، وحرمت من مخالطة الناس شهورا في زنــزانات البلاد، ودس لي الســم مــرارا، وتعرضت لإهانات متنوعة ومرت علي أوقات رجحــت فيها الموت على الحياة ألف ضعف ولولا أن ديني يمنعني من قتل نفسي فربما كان سعيد اليوم ترابا تحت تراب)[٦١]

ويبقى "النورسي" شخصية عالية غير عادية، تند عن الفهم إذا حاولنا فهمــه ضمن الموازين التي يوزن بها الرجال ما لم نسبر أغواره التي تعكس نشاطاته الفكرية والدينية، وكما لا تسبر البحار والمحيطات بمسابير الأنهار ولا يــوزن الذهــب الخالص بميزان غيره من المعادن، وكذلك ليس من الصــواب أن ننظر إلى "النورسي" بالمنظار نفسه الذي ننظر به إلى عظماء رجــال الفكر والدعوة، فالنورسي شوق مذاب، وقلب رغم قوته يسيل حبا، ويقطر لوعة، وروح خافق، ونفس مولهة، وشفقة وإشفاق على بني جلدته وأمته، وعلى بني الإنسانية قاطبة، إنه يحتضن الإنسان ويخاف عليه مــن ســجون العذاب الأبدي في الآخرة، كما يحتضن أجزاء من نفسه وقطعة من كيانه، ولنستمع إليه وهو يفصح عن نفسه قائلا:

(لقد ضحيت حتى بآخرتي في سبيل تحقيق سلامة إيمان المجتمع، فليس في قلــبي رغب في الجنة، ولا رهب من جهنم، فليكن سعيد يعني نفسه –

---

(٦١) سيرة ذاتية – النورسي ص ٤٥٧.

بــل ألــف سعيد قربانا ليس في سبيل إيمان المجتمع التركي البالغ عشرين مليونا فقط، بل في سبيل المجتمع الإسلامي البالغ مئات الملايين، ولئن ظل قرآننا دون جماعة تحمل رايته على سطح الأرض فلا أرغب حتى في الجنة، إذ ستكون هي أيضا سجنا لي، وإن رأيت إيمان أمتنا في خير وسلام فأنني أرضـــى أن أحرق في لهيب جهنم، إذ بينما يحرق جسدي يرفل قلبي في سعادة وسرور)[٦٢]

* * *

والجمـــال في "أدبـــيات **النورســـي**" ليس صفة سلبية حيادية يمتلكها الجميل بلا فعل ولا إرادة ولا تأثير، بل هو طاقة حيوية إيجابية وقوة خلاقة فاعلـــة مؤثـــرة، وقدرة على الخلق والإبداع، فهو يظل يخلق من المرايا ما يشـــاهد فيها نفسه، ويتأمل محاسنه، فالجمال والخلق متلازمان لا ينفكان، فحيـــثما نجد جمالا فأننا نجد بإزائه مرآة تعكس محاسن هذا الجمال، وربما افـــتقدناه – أي الجمال – فلا نلتقيه إلا متجليا في إحدى المرايا، والى هذا يعـــزي "النورسي" سر خلق العوالم والأكوان، وسر خلق الإنسان، فلولا الجمال التواق إلى مرايا يشاهد فيها تجلياته لم يكن هناك أكوان ولا عوالم ولا إنسان.

فالجمـــال إذن هو جوهر الحقيقة الكونية والحقيقة الإنسانية على حد ســـواء و الحقـــيقة الكونـــية والإنسانية هما المرآة العظمى لتجليات أنوار الحقيقة الإلهية، وما المعاني والأفكار والخواطر والإلهامات إلا مرايا تعكس

---

(٦٢) المصدر نفسه ص ٤٥٧.

أقباسـا مـن نور أسماء الله الحسنى على قدر شفافيتها وصفائها وسعتها وأجـل هذه المرايا من المعاني المجردة التي تعكس أعظم التجليات إنما هي: الرحمة والصدق والشرف والإشفاق والمحبة وسائر المحامد والمناقب، والحياة نفسـها ليسـت أكثر من عالم نوراني تفطر عنه قلب الجمال فهو لباب الأشـياء، وكل شيء من بحره يستقي واليه يعود والجمال بعد ذلك كله هـو موسـيقى الخلق والإبداع التي تمدهد آلام مخاضات الوجود الكبرى المتعسـرة في الفكر والحياة والسارية في مفاصل الأكوان لينشق قلبها عن دفقات متتالية لا تتوقف من العشق والشوق والطرب.

* * *

في منافـيه القصية، ومنعزلاته في البراري وفوق قمم الجبال كان "الحق والجمـال" يشـغلان فكره، ويثيران فيه عالما فسيحا وعميقا من التأمل والـنظر، أما نوازع الدم فقد غادرت حياته منذ أمد بعيد والى الأبد، ولم يكـن تقشفا ذلك الذي يفرضه على نفسه بل هو روح التقشف، وليس عطـاء مـا يجود به قلمه بل هو قلب العطاء وصميمه، وما يفجره بعزمه القـوي ليس ينبوع أمل بعيد المنال بقدر ما هو يقين يحيا به ليله ونهاره، ويعيش به ولأجله، وإذا ما صام عن الكلام فأنه يفعل ذلك ليس برغبة في الصمت بل هو استرواحا للروح واستنباتا لأزاهير الحكمة التي لا تستنبت إلا في مشـتل الصمت، ونفسه الصافية المستقيمة كان لا بد لها أن تتحد وتـتوحد بكل ما هو عادل وصادق في الإنسان والحياة، ولو قيل لمجتمع "الإيمـان" أين ضميركم الخافق، وروحكم النابض لأشاروا إليه، وأومأوا نحوه، وفي ذاته تقطن مقاومة عنيدة لا تعرف الاستسلام، ومن كان متين

البناء، صلب العود كالنورسي فأنى تستطيع سهام الأعداء أن تخترقه، إن إيمانه لا يقهر، ومواهبه الفكرية والوجدانية موضع ثقة كل من قرأه. أو عرفه عن كثب. وآلاف الأرواح التي تجوب العالم وهم يتناوحون تناوحا مخيفا باحثين عن الحقيقة وجدوا ضالتهم في أفكار هذا الرجل وفي تفسيراته المقنعة للغز الإنسان والكون والحياة، فأعماله الأدبية ذات موضوعات عظيمة تمس روح الإنسان وقلبه، وقد قدم في كتاباته إحساسا مصفى، وشعورا مرهفا حادا أرهفته التجربة، وشحذته المعاناة، وبمزيد من الشفقة والإشفاق كان يقابل أعداءه، ويعالج كراهيتهم وأحقادهم، وهذا هو انتصاره وانتصار "رسائل النور" التي بات يقرأها اليوم الملايين من الناس، وهو لا يجد سقوطا أشنع للإنسان من أن تتجرد فلسفته في هذه الدنيا من أي معنى الهي، وعلى وفرة رجولته وصلابته لم يستطع أن ينفض عن كبده أحزانا لازمته حتى موته، أو أن يمنع عينيه من أن تفيض بالدمع في مواقف الذكريات، وفي رحلته إلى "بارلا" بعد عشرين سنة من مغادرته لها نستمع إليه يقول:

(إيه "بارلا".. يا شقيقة الروح.. ورفيقة الفؤاد.. وبستان الفكر.. وحقل الأشواق.. ومستودع الآلام.. ومزرعة الآمال

ها أنذا أعود إليك بعد عشرين عاما لألتقي في ربوعك بعض نفسي.. ولأعانق في أجوائك مزع الروح وبقايا الوجدان.. فوق كل سفح وقمة، وعند كل سهل وحزن، وعلى كل شجرة وغصن وزهرة، وفي الشعاب والمنعطفات، وبين الحقول والبساتين).

ويخـــرج أهـــل "بـــارلا" كلهم شبابا وشيبا، رجالا ونساء وأطفالا، يســـتقبلونك ويرحـــبون بـــك وقد هاجت بهم الأشواق، وطفحت بهم المشـــاعر، فتدمع عيونهم فرحا، وتجيش عواطفهم محبة وإكراما وتعظيما.. وتمضـــي تشق طريقك بصعوبة بالغة بين جموع الأهالي إلى دارتك الحبيبة الـــتي أمضيت فيها ثماني سنوات كاملات، تلك الدار، التي شهدت منابع فكـــرك الأولى، وحملت أثقال أحزانك وآنست لوعة غربتك، وهدهدت أوجـــاع وحشـــتك، وضمت حناياها عليك في ظلمات الليالي وهدوات سكينتها وأنت غارق في تأملاتك أو وأنت في صلواتك وذكرك وتحمدك.

وتتـــثاقل خطـــاك وأنـــت تقترب من بيت تلميذك القديم "مصطفى جاويش" وهو النجار الذي نجد لك تلك الغرفة بين أغصان الشجرة التي كنـــت تقضي فيها ساعات العبادة والتأمل في فصل الصيف، وإذا بالبيت الحـــزين مقفر موحش بعد أن رحل صاحبه عن الدنيا يوم كنت منفيا في "قسطموني" وقفل كبير معلق على باب البيت وكأنه يقول:

أيهـــا المـــارون.. مروا بسلام ولا تقتحموا أقفال الأحزان الكبيرة.. اتركوا أشجان هذا البيت المتفرد تنعم بالصمت والسكون..

وتشـــعر وأنت تقف أمام البيت بجلال الآلام البشرية، وبجمال الحزن الصامت المهيب.. وتجهش بالبكاء.. وتغرق عيناك بالدموع...

ثم تمضـــي قلبا لهيفا، وروحا خافقا، ونفسا مولهة نحو تلك "الشجرة" الطيـــبة المباركة التي آوتك يوم عز المأوى.. وضمتك حناياها يوم تجنبك الـــناس، وجافـــاك البشـــر، وظللتك أغصانها وأوراقها من حرور الأيام وقســـاوة بني الإنسان، وفرشت لك خضرة قلبها، ومنحتك ربيع نفسها،

في وقـــت كـــان شتاء بشريا رهيبا يحيط بك من كل جانب، وصحارى إنسانية قاحلة جرداء تهب بسموم أحقادها عليك من كل مكان.

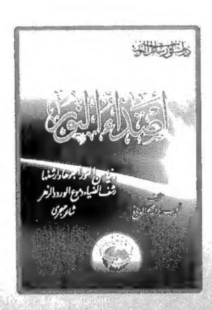
وتقترب لحظة اللقاء.. وتسير حتى إذا أصبحت في متناول يديك، إذا بـــك تميل عليها وتحتضنها احتضان من يضم إليه جزءا من نفسه، وقطعة مـــن كيانه.. وتلتصق بها، التصاق العائد إلى حضن أمه بعد غياب طويل، وتتـــلمس جذعهـــا وأغصانها وأوراقها بيدك وعينك وبكل جارحة من جوارح كيانك.. وتلصق بها وجهك المبلل بالدموع، وأنت تغالب دمعك فلا تستطيع، وتخنق أزيز الحنين فيأبى عليك ويستعصي على رغبتك، فإذا بنشـــيجك يـــتعالى، وبكائك يرتفع.. ويرين على الحاضرين من حولك صمت خاشع وسكون أسيان.. وتصعد إلى غرفتك وحيدا متـــفردا كما صعدت إليها قبل عشرين عاما.. ويظل تلامذتك والناس معهم في مكانهم صـــامتين لا يريمون.. وتدلف إلى معتزلك القديم وتظل فيه مدة ساعتين، ويســـمع الـــناس صـــوتا حزينا باكيا ينبعث من غرفتك، وأنت تستعيد ذكرياتك وأيامك التي أمضيتها فيها...

وتدمع أعينهم في صمت احتراما لآلام النفوس العظيمة التي لا يسعها الكون نفسه، ولا يقدر على استيعابها واحتوائها غير رحمة الله تعالى)[٦٣]

* * *

(٦٣) أنظر "رجل الإيمان" ص ١٢٠-١٢١.

الفهرس



..هذه الأسطر التي بين يدي القارئ الكريم وإن أسميتها "أصداء النور" غير أنها ليست خالص "الصدى" في صفائه ونقائه، بل هي "رجع الصدى"، بل هي ظلُّهُ، بل هي بعض ذُبالاتٍ مرتعشات من مشكاته.

وهذه الذبالات كانت قد قيّدت تحت عناوين مختلفة وفي أوقات متباعدة، ومناسبات متغايرة، إلاّ أن الذي ي

لا يخطئه فيها نبض النورسي، والذي يجول في ا

يخطئه عبق أنفاسه رحمه الله. فالصدى منه، ور

إليه يعود.

تقبل اللهم هذا العمل على [illegible]

[illegible] أرحم الراحمين

